القسم الأول
سير الأوّلين في سِفر التّوراه

الفصل الأول
من قَين وهَبِل إلى خراب برج بابل

وعرف آدام אדם حَوّاه חוה امرأته ، فحبلت وولدت ابنين وثلاث بنات . وسَمّت المولود الأول «قَين» קין [1] ، وقالت : «اقتنيتُ رجلاً من عند الرّبّ» ، وسمّت مولودها الثاني «هَبِل» הבל ، وقالت : «بلا شيء نزلنا هذه الدّنيا ، وبلا شيء سنُخرج منها» .

فعندما كبر الولدان اختصّ أبوهما كلاً منهما بحرفة في الأرض ، فغدا قَين عاملاً في الأرض ، وهَبِل راعياً للغَنَم .

وحدث من بعد أيام أن الولدين قدّم كل منهما قُرباناً للرّبّ ، فقدّم قَين من أثمار الأرض ، وقدّم هَبِل من أبكار غنمه . ولكن فيما انتقى هَبِل أجود خرافه وأسمنها ، قدّم قَين أثماراً من الحَشَف البالي ، من أردأ ما أنبتته الأرض . ولذا فلم يُتقبَّل قربان قَين ، ولكن إذا بنار القبول تهبط من السّماء فتستوفي التّقدمة المباركة التي أدّاها أخوه تجاه بارئه . فلذلك حلّ غيظٌ شديد في قلب قَين ، وعَزَم متى واتته الفرصة على أن يقتل أخاه .

---

(1) يلاحظ القارئ هنا اختلاف الأسماء عمّا هو معروف في الترجمات العربية للتّوراه : قايين وهابيل ، وكذلك الأمر في اسمي آدم وحوّاء ، لكننا آثرنا ترجمة المَبنى واللفظ الأصلي للأسماء كما هو بالعِبْرية لا كما اعتادته الأسماع . وهذا من باب الدقّة العلمية أولاً ، ومن باب التقيّد بالمحتوى الفيلولوجي ثانياً . واسم هَبِل تُحرّك فيه الكسرة بشكل مُمال كحركة حرف العلّة é بالفرنسية . واسم قَين مُشتق من الفعل العِبْري : קנה : اقتنى ، حاز ، تملّك . أما هَبِل فمن مفردة : בל : لاشيء .

وحدث أن كان قَين يحرث حقله ، فكان هَبل يقود قطيعه إلى المرعى واجتاز بالأرض التي كان أخوه يفلحها . بنفس ملؤها السّخط خفّ قَين صوب هَبل مُخاطباً إياه[1] : «أنّى لك أن تأتي بقطيعك فتحلّ به في أرضي التي أملكها ، ليرعى فيها ؟» . فأجاب هَبل : «وأنّى لك أنت تأكل من لحم غَنَمي ؟ وأنّى لك تلبس ثياباً مصنوعة من صوفها ؟ ادفع لي قيمة اللّحم الذي أكلتَ ، واللّباس الذي لبستَ ، لأن ذلك كلّه مُلكٌ لي ؛ وعندذاك تراني أخرج منها بالفعل ، وأطير في الهواء فلا أمسُّ أديمها» .

فقال قَين لأخيه : «ها أنت ذا الآن في قبضتي ، فإن وقع في نفسي أن أقتلك الآن في هذا اليوم ، مَن تُراه يثأر لمقتلك ؟» . «الرّبّ ، مَن أحلّنا هذه الأرض» ، أجاب هَبل ، «فهو الحَكَم العَدل الذي يُجزي المُحسن بإحسانه والمُسيء بإساءته . وليس بمقدورك أن تقتلني وتتوارى عنه بفعلتك هذه فلا ريب أنه سيعاقبك حتماً ، حتى لهذا الكلام الخبيث الذي تبتدرني به الآن» .

فزاد هذا الكلام في غيظ قَين ، وما كان منه إلا أن رفع أداة الفلاحة التي كانت بيده ، وضرب بها أخاه على حين غَرّة ، فأرداه قتيلاً . هكذا سُفح دم هَبل على يد أخيه قَين ، وجرى الدّم في الأرض ، حتى أنه بلغ المكان الذي كانت تقف فيه خراف هَبل .

وحدث بعد هذا الفعل الطائش أن قَين ناح وبكى بمرارة . ثم تدارك نفسه ونَقَب حُفرةً في الأرض ، فوارى فيها أخاه عن نور النّهار . وبعد ذلك ظهر الرّبّ لقَين ، وقال له : «أين هَبل أخوك الذي كان معك ؟» . فقال قَين : «لا أعلم ، أرقيبٌ أنا لأخي ؟» . فقال الرّبّ : «ماذا فعلتَ ؟ دم أخيك صارخٌ إليّ من الأرض . وتظن أني لا علم لي بجُرمك الذي تُنكره الآن . فالآن ملعونٌ أنت من الأرض التي فتحت لتبتلع دم أخيك . ومنذ الآن لا تعود تعطيك قوّتها ، ولا تستجيب لكدّك ، ولا تعود تعطيك شيئاً غير الحَسَك . طريداً وتائهاً تكون منذ الحين في الأرض» .

---

(1) يلاحظ القارئ وجود زيادات تفسيرية في التّلمود على نصّ التّوراة (تكوين – 4) .

فخرج قَين شريداً من لَدُن بارئه ، صوب الأرض التي بشرقي جنّة [أي بستان] عِدن גן־עדן .

ثم بعد ذلك الحين ، لمّا بدأ الرّب يسمح لقَين بالاستقرار ، حبلت امرأته وولدت ابناً . وسمّى قَين ابنه «حَنُوك» חנוך ، لأن الرّبّ أجاز له في نهاية الأمر الاستقرار في الأرض . وشرع يبني مدينة ، فسمّاها هي الأخرى «حَنُوك»[1] ، للسّبب عينه ، لأنه لم يعد طريداً وتائهاً في الأرض .

* * *

ثم عندما بلغ آدم المئة والثلاثين من العمر ، وَلَدَ ابناً آخر ، ودَعا اسمه «شِيْت» שת[2] . وعاش شيت مئةً وخمس سنين ، ووَلَدَ «أنوش» אנוש . وبدأ النّاس يكثرون ويتوالدون على وجه الأرض ، لكنّهم دنّسوا أرواحهم بالخطايا والمعاصي تجاه الرّبّ ، وتعاظم شرورهم وطغيانهم يوماً بعد يوم . ونسوا إلههم الأبدي الذي خلقهم وأعطاهم الأرض مُلكاً لهم ، فراحوا يعملون الصّور من النّحاس والحديد والخشب والحجر ، وطفقوا يسجدون لها عابدين . ودام النّاس على ذلك الضلال طوال مدّة حياة أنوش .

ولهذا فقد تزايد سخط الله عليهم ، وقدّر طوفان نهر جيحون נהר גיחון لتدميرهم وإفنائهم . ولكن رغم أن ثلث البشر انقرضوا من جرّاء ذلك ، لم يرعوِ الباقون أو يتوبوا ، بل أقاموا على شرورهم ضالّين أمام عيني الله .

---

(1) في العِبْرية חנוך تعني : تنشئة ، تدشين ، ومنها عيد الأنوار «حَنُوكاه» חנכה ، أي عيد التّدشين في 25 كسليف ، كما يُطلق اسم חנכיה على شمعدان المنوراه ذي التسعة شُعَب المُستعمل في عيد الأنوار . وفي العِبْرية تعني «حَنُوك» اليوم : تربية ، تعليم .

(2) يُترجم الاسم إلى العربية : شيث ، رغم أنّ حرف الشاء في العِبْرية ليس أصيلاً . ومردّ ذلك أن التراجمة الذين عرّبوا التّوراه لم يعتمدوا النص العِبْري المسوراتي מסורתי ، بل نقلوا عن ترجمة يونانيّة متأخّرة ، ميّزت (بنحو مغلوط) بين حرفي ת (تـاف) و ט (طيت) العِبْريين بنقل الأول بالحرف اليوناني ثيتـا θ (ث ، th) ، والثاني بالحرف اليوناني تـاو τ (تَ ، t) ، ومن هنا منشأ الغلط في العربية وكل اللغات الأوروبيـة أيضـاً . والعجيب أن نقرأ إلى اليوم نصّ التّوراه بالعربية مترجماً عن اليونانيّة بأغاليطها (وهـي ليست الترجمة السّبعينيّة תרגום השבעים القديمة) ، بدلاً من ترجمته رأساً عن العِبْرية !

في أثناء هذه المدّة توقّف الزّرع والحصاد ، وحلّت بالأرض مجاعة مُمضّة ، لأن النّاس لمّا زاغوا وفسدوا فسدت الأرض معهم ، وبدلاً من أن تُعطي ثماراً لقُوت الإنسان راحت تطرح شوكاً وحَسَكاً .

* * *

وعاش أنوش تسعين سنةً ، ووَلَدَ «قينان» קינן . وكان قينان رجلاً حكيماً يعرف الأمور جميعها ، وعندما بلغ الأربعين من العمر حَكَمَ جنس البشر بأسره . ولمّا كان رجلاً حصيفاً فقد علّم النّاس ، ونقل إليهم حكمته وعلومه . وقد أدرك بأن البشر سوف ينالون جزاءاً كبيراً على شُرورهم الدّائمة ، وتنبّأ حول المستقبل والطوفان الذي سيصيب به الله الأرض ، وكتب هذه النبوءات على ألواح من حجر ، وأودعها في الخزنة .

وعندما بلغ قينان السبعين من العمر وَلَدَ من الأبناء ثلاثة بنين وابنتين . أما الابنتان فصارتا زوجتين للامك למך بن متُوشَئيل ، الحفيد الخامس من سُلالة قَين[1] . فولدت زوجته الأولى «عَاداه»[2] עדה ابناً سمّته «يابال» יבל ، وابناً آخر سمّته «يُوبال» יובל . أما أختها «صِلاّه» צלה فكانت عاقراً لا تُنجب مدّة سنوات عديدة .

ولكن حدث أن صِلاّه ، برغم شيخوختها ، ولدت ابناً سمّته «تُوبال قَين» תובל קין ، قائلةً : «بعدما شختُ وهبني الرّبّ القدير ابناً» . ثم حبلت صِلاّه ثانيةً ، وولدت ابنة سمّتها «نَعَمَاه» נעמה ، وفي هذا الاسم كناية عن السّرور والفرح في سن الشيخوخة .

فلمّا شاخ لامك شحّت عيناه ، ثم كُفّ بصره تماماً ، فكان ابنه تُوبال قَين يقتاده بيده عندما يخرج .

---

(1) تفصيل ذلك : لامك بن متوشَئيل بن محويَئيل بن عيرد بن حنوك بن قَين . ودوماً أسقطنا ألف (ابن) هنا لأن المقصود بها المفردة العِبرية בן لا العربية ابن . وهما واحد في اللغتين على أي حال .

(2) في الترجمات العربية المألوفة للتّوراه : عادَة وصِلّة ، وهذا رسم غير صحيح البتّة ، فعلى من يُترجم التقيّد بالمعايير اللفظية للغة التي يترجم منها لا التي يترجم إليها .

وحدث أنه عندما كان تُوبال قَين صغيراً ، اقتاد أباه إلى الحقول للصيد ، وقال لأبيه : «انتبه ، هو ذا حيوان للصيد» ، ارم بسهمك في ذاك الاتجاه . ففعل لامك كما أشار عليه ابنه ، فإذا بالسّهم يصيب قَين الذي كان يمشي على مَبْعَدة ، فأرداه قتيلاً . فهكذا تمّ الاستداد من دم قَين كما كان سَفَحَ دم أخيه هَبِل .

وعندما اقترب لامك وابنه وأدركا أنهما قد قتلا جدّهما قَين بدلاً من حيوان صيد ، ارتعدت مفاصل لامِك بشدّة وضرب كفّاً بكف بقوّة ، من هول الصّدمة والحزن والخوف . ولمّا كان ضريراً لم يتسنّ له رؤية ابنه ، وحصل أن لَكَز رأس الفتى بين يديه ، فصرعه على الفور . ولمّا اكتشفت زوجتاه ما قد أتى عليه زوجهما أنحيتا عليه باللّوم وكرهتاه .

لكنه خاطبهما قائلاً : «يا عادَاه وصِلاّه ، اسمعا قولي ! آه ، يا امرأتي لامِك ، أصغيا لكلامي ! لقد قتلتُ رجلاً يؤلمني مقتله وولداً يجرح قلبي مقتله ، ولكن لم أفعل ذلك عن قسوة قلب أو سابق تصميم . أنتما تعلمان أني عجوز أشيب ، وأن عيناي لا تُبصران ؛ فكان ما فعلتُ بغير قصد مني ، لا بل كان فيه جُرحي وألمي» .

ثم صفا قلب الزّوجتين على زوجهما ، بوساطة من أبيهما آدام ، لكنهما لم تُنجبا بعدُ أبناءً آخرين .

* * *

«ووَلَدَ مَهَلَلْئيل يِرِد ירד ، ويِرِد وَلَدَ حَنُوك[1] חנוך ، وحَنُوك وَلَد مِتُوشِلَح מתושלח» . وعَبَدَ حَنُوك الله وسار معه ، وازدرى الأشرار الذين حوله ، والتزم بالعلوم والحكمة إلى دروب العليّ القدير . وحدث أنه فيما كان يصلّي في بيته إذا بمَلَك من الله يناديه من السّماء قائلاً : «حَنُوك ، حَنُوك» ، فأجاب : «ها أنا ذا» . فقال المَلَك : «قُم ، انهض من وحدتك وامش بين النّاس . علّمهم طريق الحقّ ، وأرشدهم إلى ما ينبغي لهم فعله» . ففعل حَنُوك كما أمره الله .

---

(1) يُترجم الاسم بالغلط «أخنوخ» في التُّوراه المعرّبة (تكوين – 5 : 18) ومصادر السِّير . وقد عُثر في الحبشة على مخطوط سفر ضائع من التّوراه يُنسب لحنوك ، نُشر في إنكلترا .

راح يمشي بين النّاس ويعلّمهم سُبُل الخالق ، ويجمعهم ليهديهم بإخلاص وصدق . وقام بتكليف أتباعه لينادوا في جهات المعمورة حيثما كان بشر : «مَن كان منكم يرغب بمعرفة سُبُل الله وسلوك طريق الصّلاح ، فعليه بقَصد حَنوك» . وحَكَم حَنوك البشريّة فأذعن لطاعته النّاس ، ولمّا كان مقيماً بينهم عَبَدوا الله حقّ عبادته . وتقاطر الأمراء والحكّام للاستماع إلى كلامه الحكيم وليؤدّوا تجاهه فروض الطاعة . وأحلّ حَنوك السّلام على امتداد الأرض .

وامتدّ حكم حَنوك على جنس البشر ثلاث مئة وثلاث وخمسين سنة ، كان ينتهج فيها العدل والصّلاح ، ونعمت الأرض بالأمن والسّلام طوال هذه المدّة . وكان مِتُوشِلَح ابناً لحَنوك ، ولامِك ابناً لمِتُوشِلَح . ومات آدام ، عن عمر يناهز التسع مئة وثلاثين سنة ، عندما كان لامك بعمر الخامسة والستين ، فدُفن بتكريم عظيم على يدي شيت وحَنوك ومِتُوشِلَح . سُجّي جُثمانه داخل مغارة ، وتُشير بعض المصادر إلى أنها مغارة «مَكفلاه» מכפלה [1] . ومنذ ذلك الحين ، أي دفن آدام ، اتُّخذت عادة الاحتفال بمراسم الجنازة للموتى .

مات آدام لأنه أكل من ثمر شجرة المعرفة ، وعبر خطيئته هذه ينبغي لذرّيته من البشر جميعاً أن يذوقوا الموت مثله ، كما قال الله . وكانت السنة التي مات فيها آدام هي الثالثة والخمسون بعد المئتين من حُكم حَنوك .

وحدث في ذلك الوقت أن حَنوك تاق بكل جوارحه إلى العُزلة من جديد ، فتخلّف ثانيةً عن مجامعه المتكررة مع النّاس . لكنه لم يعتزل عنهم بالكلّيّة ، إنما كان يختلي بنفسه ثلاثة أيام ، ثم يظهر في اليوم الرابع ليقدّم إليهم النّصائح ويعلّمهم . ولكنه بعد مضي بضعة سنوات زاد من فترات اعتزاله عن العالم ، فصار يختلي بنفسه عن النّاس ستة أيام ، ثم يخرج ليعظهم في اليوم السابع . غير أنه بعد ذلك لم يعد يظهر أمام الناس غير مرّة واحدة في السنة ، ورغم تَوقهم إلى رؤيته والإصغاء إلى صوته ، في غير هذا اليوم الوحيد في السنة ، لم يكن في مقدورهم رؤيته أبداً .

---

(1) انظر ما يرد عنها في التّوراه ، سفر التكوين – 23 : 9 . وفي الإشكنازيّة : مَخپيلاه .

وغدا حَنوك قُدّوساً بحيث أن النّاس ارتعدوا منه وما عادوا يجرؤون على الدنوّ منه عندما كان يظهر لهم ، لهالة النّور السّماوي الذي يتألّق على وجهه . لكنهم كانوا عندما يتكلّم يتجمّعون ويُصغون إلى كلامه ، وينهلون من علومه ، وراحوا ينحنون أمامه ويهتفون بملء أصواتهم : «عاش المَلِك !» .

وحدث أنه بعدما تعلّم سكّان المعمورة من حَنوك سُبُل الله ، ناداه مَلَك من السّماء قائلاً : «اصعد يا حَنوك ، اصعد إلى السّماء ، لتحكم بين أبناء الرّب في السّماء كما كنتَ حكمتَ أبناء البشر على الأرض» .

فجمع حَنوك النّاس وقال لهم : «ها أنا دُعيتُ إلى السّماء ، بيد أني لا أدري متى يكون أوان صعودي . لذلك فهلمّوا أعلّمكم قبل أن أمضي ، مكرّراً الدّروس التي كنتم سمعتموها من فمي» . وأحلّ حَنوك السّلام والوئام بين بني البشر ، وأرشدهم إلى طريق الخلود . وراح أتباعه ينادون حيثما كان بشر : « مَن كان منكم يرغب بالحياة ويتعلّم سُبُل الله ، فعليه بقَصد حَنوك ليتعلّم ، قبل أن يُرفع من بيننا عن وجه الأرض» .

وهكذا علّم حَنوك النّاس ووحّدهم بسلام ووئام . ثم ركب جواده ومضى مُبتعداً ، فتبعه حَشد غفير من النّاس مسيرة يوم .

وحدث أنه في اليوم التالي تكلّم حَنوك مع الذين تبعوه ، قائلاً : «ارجعوا إلى خيامكم ! أين تتبعونني ؟ ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» . فعادت طائفة من أتباعه عند سماعهم هذا الكلام ، لكن طائفة أخرى تابعت المسيرة بصحبته ، وكان كل يوم يخاطبهم قائلاً : «ارجعوا ، وإلا أصابكم الموت» .

وفي اليوم السادس كان لا يزال ثمّة بعض ممّن تبعوه ، فقالوا : «حيث تذهب فمعك نحن ، وطالما كان الله حيّاً فلا شيء يفرّقنا عنك إلا الموت» . فلمّا ألفاهم حَنوك مصرّين على هذا الوجه كفّ عن مخاطبتهم . وكان الذين عادوا في اليوم السادس يعلمون عُدّة الذين تبعوه ، غير أن أحداً من هؤلاء الذين تركوهم في اليوم السادس لم يعد البتّة . وفي اليوم السابع ارتفع حَنوك إلى السّماء في زوبعة ريح ، بمركبة وخيول من نار .

وحدث أنه بعد ارتفاع حَنوك إلى السّماء شرع النّاس في البحث عن أولئك الذين تبعوه ، فوجدوا في المكان الذي غادروهم فيه ثلجاً وجليداً كثيفين . فلمّا حفروا في الجليد عثروا على جُثث الأشخاص الذين كانوا عنهم يبحثون ، أما حَنوك فلم يعثروا له على أي أثر . فكان هذا معنى نصّ سفر التّوراه المقدّس : «وسار حَنوك مع الله ، ولم يوجد (أي حيث جرى البحث عنه) لأن الله أخذه» . ויתהלך חנוך את־האלהים ואיננו כי־לקח אתו אלהים: (בראשית תكوين – 5 : 24) .

وكان ارتفاع حَنوك إلى السّماء عندما كان عمر لامِك بن مِتُوشِلَح مئة وثلاث عشرة سنة .

* * *

وحدث بعد ارتفاع حَنوك إلى السّماء أن النّاس نصّبوا ابنه مِتُوشِلَح ملكاً عليهم . فأقام مِتُوشِلَح على أصول الصّلاح التي لقّنه إياها أبوه . واستمرّ في تعليم النّاس التّقوى والخير كما كان فعل حَنوك من قبله . ولكن في أواخر مدّة حُكمه راح النّاس يهملون تعاليمه ولا يأبهون بها ، فضيّعوا حقوق النّاس بينهم ، وعصوا أوامر الله .

وحلّ بهم غضب الرّبّ من جديد ، فعادت الأرض تُنبت شوكاً وحَسَكاً بدلاً من ثمارها التي يقتات بها الإنسان ، لكنهم لم يتوبوا ولم يكفّوا عن شرورهم وضلالاتهم . ولذلك قرّر الله أن يُفنيهم بأكملهم من على وجه الأرض .

وعندما كان لامِك بن مِتُوشِلَح في سن المئة وستة وثمانين عاماً ، مات شيت بن آدام ودُفن . وفي هذه الأثناء اتّخذ لامِك لمך لنفسه زوجة ، هي أشْمُوَع אשמע ، ابنة إليْشُوَع אלישע بن حَنوك ، ووَلَدَ ابناً فسمّاه نُوَحْ נח[1] . ونشأ نُوَحْ على فضائل الصّلاح وتمسّك بقوّة بسُبُل الحقّ التي لقّنه إياها مِتُوشِلَح ، غير أن النّاس تمادوا في معاصيهم تجاه الله وفشا الغشّ بينهم .

---

(1) كذا مبنى الاسم في العِبْرية ، ورغم أنه يتألف من حرفي (ن – ح) فالقاعدة العِبْرية أن الحاء الأخيرة المحركة بفَتاح ويسبقها حُولام قَطان أو قبوص تُلفظ : وَح ، كاسم : شِلُوَح .

فقال الله : «هي ذي الأرض بأكملها قد فسدت . أمحو عن وجه الأرض هذا الأنسان الذي خلقتُ ، وكذلك طيور السّماء وبهائم البرّ ، لأن شرور الإنسان ليست تؤهّله للحياة ، وإنّي لآسفٌ على خلقي إيّاه» .

غير أن الرّبّ أمسك عن غضبه ، إلى أن مات كل إنسان كان يسلك إليه بالخير سبيلاً ، قبل أن يحلّ لعنته التي قرّرها ، وذلك لئلا يُبصر عباده الصّالحون ما يكون من جزاء قومهم . ولكن نُوَح[1] لاقى بركةً في عيني الرّبّ ، فاصطفاه الله مع أسرته من بين بشر الأرض كلّهم ، ليُبقيه وإيّاهم على قيد الحياة ما بعد الفناء الذي قَدّر له الوقوع .

وحدث في السنة الرّابعة والثمانين من عمر نُوَح أن أنوش بن شيت مات بعمر تسع مئة وخمس سنين . وعندما أضحى عمر نُوَح مئة وسبعين ، مات قينان عن عمر تسع مئة وعشر سنين . ومات مَهَلَلْئيل عن عمر ثمان مئة وخمس وتسعين سنة ، عندما كان نُوَح بعمر مئتين وثلاثين سنة . وعندما أضحى نُوَح في عمر ثلاث مئة وستين ، مات يرِد بعمر تسع مئة واثنتين وستين سنة . وكذلك مات في تلك الأيام جميع مَن اتّبعوا أوامر الرّبّ ، من قبل أن يُريهم العقاب الذي قد أمر بوقوعه .

وحدث في السنة الثمانين بعد الأربع مئة من عمر نُوَح ، أن الصّالحين الوحيدين المتبقّين في ذلك الجيل كانوا متُوشِلَح ونُوَح مع أسرته . وعندها ، صدرت كلمة الرّبّ إلى متُوشِلَح ونُوَح كما يلي : هيّا امضيا ، أعلنا أمام البشرية قاطبةً : هكذا تكلّم الرّبّ : «تراجعوا عن نواياكم الخبيثة ، تخلّوا عن طرقكم الضالّة» ، لكي يعفو عنكم الله ويُبقيكم على وجه الأرض . لأن الله الأزلي قال : «إني سأمهلكم مئة وعشرين سنة لتتوبوا ، فإن تخلّيتم عن طرقكم الضالّة ، سوف أتخلّى عن نيّتي في إفنائكم» .

---

(1) نذكّر – كما قلنا في المقدّمة – أننا عددنا الأسماء العِبْرية في نصّنا ممنوعة من الصّرف ، لئلاّ يقع الالتباس في كون الألف المنوّنة أصلية في الاسم ، ثم إن هذه الأسماء بصيغتها العِبْرية الأصلية لن يستقيم تنوين آخرها أو كسره . ونحن بذا على أي حال لم نخرج عن قاعدة النّحو العربية المتّبعة . فمعذرةً من سيبَوَيْه أنْ لم نكتب : لكنّ نوحاً !

فمضى نُوَح ومتُوشِلَح قُدُماً ، وتحدّثا بكلمات الربّ هذه أمام النّاس . وكانا كل يوم ، من الصّباح حتى المساء ، يخاطبان النّاس ، لكن النّاس لم يُلقوا بالاً إلى كلامهما .

ولمّا كان نُوَح رجلاً باراً في جيله ، فقد اصطفى الربّ ذُرّيته لكي تنتشر على الأرض بأسرها . ثم قال الله لنُوَح : «اتّخذ لنفسك زوجةً ، وأنجب الأبناء ، إذ أنني أراك أمامي رجلاً باراً . فأنت وحدك ، مع امرأتك وأبنائك ، سوف تحيون على الأرض من بين هذا الجيل» .

ففعل نُوَح كما أمره الله ، واتّخذ نَعَماه ابنة حَنوك زوجةً له ، وكان عمر نُوَح أربع مئة وثمان وتسعين سنة عندما تزوّج نَعَماه . وحبلت نَعَماه وولدت ابناً سمّته «يافِتْ» יפת [1] قائلةً : «قد أكثَرَنا الله على الأرض» . وولدت ابناً آخر فسمّته «حام» חם . وولدت ابناً ثالثاً فسمّته «شِيْم» שם [2] قائلةً : «وهبني الله اسماً عظيماً في الأرض» . وكان عمر نُوَح خمس مئة وسنتين عندما ولدت له ابنه الثالث شِيْم .

فنشأ الصبية وساروا مع الله ، كما علّمهم نُوَح ومتُوشِلَح . وفي هذه الأيام مات لامِك ، والد نُوَح . لكن لم يكن له من الصّلاح لا كأبيه ولا كابنه . وكان عمره لمّا مات سبع مئة وسبعاً وسبعين سنة .

وكلّم الربّ متُوشِلَح ونُوَح من جديد ، قائلاً : «مرّة أخرى ادعيا البشرية إلى التّوبة . كرّرا النّداء قبل أن يحلّ عقابي بالنّاس» . غير أن النّاس لم يُصغوا ، بل تجاهلوا كلمات الإنذار .

---

(1) الاسم في العِبْرية من فعل פתה : وسّع ، نشر ، مدّ . ومن الغلط ترجمته : يافث ، عن اليونانية ، كما قدّمنا في كلامنا على اسم شيت .

(2) هكذا يُلفظ الاسم في العِبْرية (ومعناه : اسم) وهو في العربية سام ، كما في اليونانيّة وعنها لغات أوروبا . والصحيح هو إيراد الاسم بصيغته الأصلية لا بقولبته حسب اللغات الأخرى ، صحيح أن بين اللغات السّاميّة إقلاباً بين الحروف (كالسين والشين هنا) ، ولكن لا نرى سبباً للإبقاء على هذه الترجمة المغلوطة . بل غايتنا في هذا العمل تقديم نموذج دقيق ومباشر عن نصّ التّلمود ، نقلاً عن لغته الأم ومصطلحاته الأصليّة ، الأمر الذي لم يتمّ بالعربية حتى الآن سوى مرّة واحدة (في عمل مويال عام 1909) .

فقال الرّبّ لنُوَح : «نهاية كل بَشَر قد أتت أمامي ، إذ أفسدوا طرقهم ، فها أنا مُهلكهم مع الأرض . أما أنت فاصنع لنفسك تابوتاً[1] من خشب قَطراني . وهكذا تصنعه : ثلاث مئة ذراع يكون طوله ، وخمسين ذراعاً عرضه ، وثلاثين ذراعاً ارتفاعه . وتصنع باباً للتّابوت في جانبه وتُكمله إلى حدّ ذراع من فوقه» .

وفي السنة الخامسة والتسعين من بعد الخمس مئة من عمره ، شرع نُوَح في صنع التّابوت ، وأتمّه في السنة الست مئة من عمره ، وخلال مدّة صنعه تزوّج أبناؤه الثلاثة من بنات متُوشِلَح الثلاث .

وحدث أيضاً في هذه الأيام أن متُوشِلَح بن حَنوك مات بعمر تسع مئة وتسع وستين سنة . وبعد موته قال الرّبّ لنُوَح : «فلتدخل التّابوت أنت وأهل بيتك كلّهم ، وها أنا مُرسلٌ إليك البهائم والطيور جميعها حول التّابوت . فعليك أن تقف عند مدخل التّابوت ، وستتجمّع البهائم والطيور أمامك ، فما أقعى منها أمامك فليُدخلها بَنوك إلى التّابوت ، وما بقي منها قائماً فذَرْها» .

فكما تكلّم الرّبّ حصل ، وتجمّعت البهائم بأعداد كبيرة مقابل التّابوت ، فما أقعى منها أُدخل إليه ، فيما تُركت الأخرى . وعند مضي سبعة أيام قصفت الرّعود والبروق في السّماء فهزّت أركان الأرض ، وأظلم بهاء الشّمس ، وهطل مطر عظيم ، وتجاوزت حدّة العواصف كل ما عرفه الإنسان أو تخيّله .

هرع النّاس إلى التّابوت وتمسّكوا به وصاحوا بنُوَح مستغيثين ، فأجابهم : «مئة وعشرون سنة مضت وأنا ألحّ عليكم لتسمعوا كلامي ، أما الآن فهَيْهات ، قد فاتتكُم الفرصة» .

وهطل المطر أربعين يوماً وأربعين ليلة بقوّة هادرة ، حتى أن أصحاب التّابوت أصابهم الهلع والقلق ، من خوفهم ألا يكون تابوتهم قادراً على تحمّل هذا الجبروت الغامر . فراحت كل بهيمة في التّابوت ، على اختلاف أنواعها ، تصيح من الخوف والعجز ، حتى أضحى الصّخب هادراً ورهيباً .

---

(1) المفردة الواردة في العِبْرية : תבה تباه (تڤاه) : صندوق ، كما تُطلق على تابوت العهد . فترجمناها به بدلاً من : سفينة أو فُلك ، على اعتبار الأصل وهو هنا أولى .

عند ذلك توجّه نُوَح إلى الله الأزلي ضارعاً : «ياربّ ، أتوسّل إليك ، نجّنا السّاعة ! فبغير عَون في وجه هذه الشدّة ترانا سنؤوب إليك . أنهار المياه تروّعنا ، والموت يلتطم بين الأمواج حولنا . انظر بوجهك إلينا يا ربّ ! ارحمنا ، أحينا وأنجدنا وخلّصنا !» . فسمع الله صوت نُوَح ، وتذكّره .

* * *

«وأرسل الله ريحاً على الأرض فتناقصت المياه ، . . . . ، واستقرّ التّابوت في الشهر السّابع . . . . ، على جبل أراراط» אררט [1] . ففتح نُوَح كوّة التّابوت ، وصرخ إلى الله من جديد قائلاً : «يا ربّ ، يا إله السّموات والأرض ، أطلق أرواحنا من الأسر ، حرّرنا من الحبس الذي نعيش فيه . فقلوبنا قد أضنتها زفرات الأسى . فأجاب اللهُ نُوَحَ قائلاً : «في خاتمة العام يكون لكم أن تخرجوا من التّابوت» .

وحدث في الشهر الثاني ، في اليوم السابع والعشرين من الشهر ، أن جفّت الأرض . ولكن نُوَح وأسرته مكثوا في التّابوت ، ولم يبارحوه حتى كلّمهم الله قائلاً : «اخرُجوا من التّابوت» . فخرج عندئذ جميع البشر والحيوانات من المركب الذي نجت أرواحهم فيه .

وعبد نُوَح وبنوه الرّبّ طوال سني حياتهم ، وباركهم الله . وتكاثر جنس البشر بسرعة بعد الطوفان . وأسماء تلك الأجيال مكتوبة في التّوراه . أما كُوش כוש بن حام ، حفيد نُوَح ، فقد تزوّج في شيخوخته امرأة صبيّة ، ووَلَد ابناً سمّاه «نِمْرُود» [2] נמרד ، لأنه في تلك الأيام بدأ النّاس يعصون أوامر الرّبّ مجدّداً ، فاسم نمرود يعني التمرّد والعصيان .

---

(1) تضمين حرفي من متن التّوراه ، تكوين : 8 : 1–4 . أما اسم الجبل فهو يُلفظ بالإشكنازية بالتاف (أرارات) ، ويُنسب إلى جبل معروف في جنوب شرقي تركية اليوم ، تغمره الثلوج صيفاً وشتاءً . أما في التراث الإسلامي فيسمّى الجبل المذكور : الجُودي .

(2) كذا منطوق الاسم في العبْرية لا بفتح النون كما في العربية ، والواو تُلفظ O . واسمه ليس النّمرود بن كنعان كما في كتب السِّير ، بل نمرود بن كُوش . وهو صاحب قصّة إلقاء إبراهيم في النّار ، التي ليست في التّوراة أصلاً بل في المدراش والتّلمود .

ثم شبّ نِمرود ، وكان أبوه يحبّه حبّاً جَمّاً ، لأنه كان ابن شيخوخته . وكان ثمّة رداء من الجلد صنعه الله لآدام ، فلمّا مات آدام غدا هذا الرّداء ملكاً لحَنوك ، ومنه انتقل إلى متُوشِلَح ابنه ، وأعطاه متُوشِلَح لنُوَح ، الذي أخذه معه في التّابوت . ولمّا خرج النّاس من التّابوت ، سَرَق حامُ هذا الرّداء وأخفاه عن إخوته ، ثم أعطاه فيما بعد خفيةً لكُوش ابنه . وأخفاه كُوش سنين عديدة ، ثم بسبب حبّه العظيم لنِمرود ابن شيخوخته أعطاه إيّاه . فلمّا أضحى نِمْرُود في سنّ العشرين لبس هذا الرّداء ، فأسبغ عليه قوّة وجبروتاً ، كجبّار صَيد في البراري ، وكجبّار حرب ينال من أعدائه وخصومه . وتكلّلت بالظّفر حروبه وأعماله ، حتى غدا ملكاً على الأرض كلّها .

وها هي ذي مقدرته إلى يومنا هذا لا تزال مضرباً للأمثال بين النّاس ، فمن يعلّم الأيادي الفتيّة فن استعمال السّلاح ، والأذهان الفتيّة أسرار القنص ، يتمنّى لتلامذته أن يكونوا «كنِمْرُود ، جبّار صيد في البراري ، وظافراً في حروبه» .

ولمّا أضحى نِمْرُود في الأربعين ، تشاجر إخوته بنو حام مع بني يافِث . فجمع نمرود عشيرة كُوش ، وتقدّم لقتال بني يافِث . وخاطب جيشه قائلاً : «لا تجزعوا ، واطردوا الخوف من قلوبكم . فأعداؤنا سيُضحون بلا ريب غنيمةً لكم فتفعلون بهم ما تشاؤون» . وحاز نمرود على النّصر ، وأمست جيوش أعدائه تبعاً له . ولمّا عاد مع جنوده إلى ديارهم مُبتهجين بالنّصر ، أحاط به النّاس ونصّبوه ملكاً ، ووضعوا على رأسه تاجاً . فعيّن لنفسه مستشارين وقُضاةً وشيوخاً وقوّاداً ومقدّمين ، وأسّس حكومة للأمّة ، وعيّن تارَح بن ناحُور[1] תרח בן נחור كبير أُمناء مملكته .

فلمّا أرسى نمرود قواعد سلطانه هكذا ، قرّر أن يبني مدينة ، بلدة مسوّرة ، لتكون عاصمة مملكته . فاختار لذلك سهلاً وبنى فيه مدينة كبيرة ، سمّاها شِنعار שנער . وأقام نمرود في شِنعار بأمان ، وسرعان ما غدا حاكم العالم بأسره . وفي ذلك الحين كان لسكان الأرض أجمعهم لغة واحدة ولسان واحد .

---

(1) تارَح بن ناحور هو أبو أبرام (إبراهيم عليه السلام) ، كما سيرد في الفصل التالي .

راح نمرود يتقلّب في نعمائه فنسي ربّه ولم يعبده ، بل صنع أرباباً من خشب وحجر ، وراح النّاس يتّبعونه فيما يفعل . وعَبَدَ ابنه مردان מרדך الأصنام هو الآخر ، ومن هنا مصدر المَثَل القائم إلى يومنا الحاضر : «وهل يُخلّف الشّرير إلا أشراراً ؟» .

* * *

وحدث في هذه الأيام أن قوّاد نمرود وأحفاد قُوط פוט ومِصْرايم מצרים وكُوش כוש وكَنعان כנען عقدوا مجلساً ، وقالوا فيما بينهم : «لنبنِ لنا مدينةً وفي وسطها برجٌ عالٍ كحصن ، وليصل رأسُه إلى السّماء . فهكذا نُقيم لأنفسنا اسماً عظيماً وجبّاراً ، ترتجف أمامه أعداؤنا جميعاً . عندها لا يجسرنّ أحد على مسّنا بسوء ، ولا تشتّتنّ الحروب أمجادنا» .

ولمّا خاطبوا الملك بهذا الكلام وافق على خططهم . وهكذا اجتمعت هذه العشائر واختارت بقعةً ملائماً لمدينتها ، في سهل شرقي بأرض شنعار . ولمّا كانوا آخذين في البناء ، دبّ العصيان في قلوبهم ، عصيانٌ في وجه الله ، وتخيّلوا أن بوسعهم اختراق السماء ومحاربته . فانقسموا إلى ثلاث فرق ، وقالت الفرقة الأولى : «نرقى إلى السّماء فنضع فيها آلهتنا ونتعبّدها» . قالت الفرقة الثانية : «بل نقتحم سموات الرّبّ ونضارع قوّته بقوّتنا» . بينما قالت الفرقة الثالثة : «أجل ، ونرميه بوابل من أسهُمنا وحرابنا» .

فنظر الله أفعالهم الضالّة واطّلع على نواياهم الخبيثة ، فيما مضوا في البناء . وكانوا إذا سقط حجر مما يرفعون حزنوا وبكوا ، أما إذا سقط أحدٌ من إخوانهم ودُقّت عنقه لم يكترث أحدهم للرّوح التي أُزهقت قيد شعرة . وهكذا ، مضوا في البناء سنين عديدة ، إلى أن قال الله : «والآن نُبَلْبِل ألسنتهم»[1] . فإذا بالنّاس ينسون لغاتهم ، وراحوا يخاطبون بعضهم بلغات غريبة . ومن جرّاء عدم التّفاهم الذي سبّبه اختلاط الألسن راحوا يتشاجرون ويقتتلون ، فمات منهم الكثير في هذه المعارك ، إلى أن اضطرّوا في النهاية إلى الكفّ عن البناء .

---

(1) بحسب تفسير التّوراة أن مملكة «بابل» בבל سُمّيت نسبة لهذا الحدث .

وجازى الله كل واحدة من الفرق الضالّة الثلاث بحسب خطيئتها ، فأما الذين قالوا : «نضع آلهتنا في السّماء» ، فقد مسخهم الله قردةً ؛ وأما الذين قالوا : «نرميه بوابل من أسهُمنا وحرابنا» ، فقد قتل بعضهم الآخر بسبب عدم إمكانيّة التّفاهم بينهم ؛ وأما الذين قالوا : «لنجرّب قوتنا بقوّته» ، فقد شُتّت شملهم على وجه الأرض .

وكان البُرج متجاوزاً جداً في الطول ، فأما الجزء الثالث منه فقد غاص في الأرض ، وأما الثلث الثاني فقد احترق وتبدّد ، فيما بقي الثلث الأخير إلى وقت خراب بابل .

وعلى هذا النّحو المذكور كان تشتُّتُ البشر عبر الأرض ، وتفرّقهم إلى أمم كثيرة متعدّدة .

* * *

الفصل الثاني
من مولد أبرام إلى خراب سِدُوم وعَمراه

كان تارَح بن ناحُور[1] תרח בן נחור كبير مُقدّمي الملك نمرود ، وكان أثيراً جداً عند مولاه الملك . فلمّا ولدت امرأته أمتِطاه אמתטה بنت كرنَبُو כרנבו ابناً سمّت الوليد «أب – رام» אב־רם ، وهذا يعني : أبٌ عظيم . وكان عمر تارَح سبعين سنة لمّا ولد ابنه أبرام .

وحدث في ليلة مولد أبرام أن تارَح استضاف عدداً من أصحابه ، بما فيهم حُكماء الملك نمرود وسَحَرته . فأمضوا السّهرة في العَربَدة والصَّخَب ، ولمّا مضوا من منزل مُضيفهم كان الصّبح أوان انبلاجه . فلمّا رفعوا بأبصارهم صوب السّماء أبصروا بنجم كبير ساطع يطلع أمامهم في المشرق ، ويبتلع أو يلتهم أربع نجوم صغاراً من أركان السّماء الأربعة . فتعجّب السّحرة مليّاً لهذه الواقعة ، وقال بعضهم للآخر :

«لا بُدّ أن هذا نذيرٌ مرتبط بمولد طفل تارَح . فعندما يكبر سيغدو له شأن عظيم ويتزايد سلطانه وقَدْره للغاية ، وسيبيد نسله أركان هذه المملكة ويحوزون على أملاكها» .

ومضى كلٌّ إلى بيته وراحوا يُمعنون النّظر في هذا الشأن ، ثم لمّ التقوا في بيت التجمّع قالوا : «فلنُنبئنّ الملك بالواقعة العجيبة التي برزت لناظرينا . فإن نمي خبرها إلى علمه عن طريق آخر غيرنا فسوف يستبدّ به الغضب علينا لكتم الأمر عنه ، أو لعلّه حتى يقتلنا لإهمالنا . لنذهبنّ إليه للتوّ فنجنّب أنفسنا مغبّة الأمر» .

---

(1) اسم أبي أبرام حسب التّوراه (تك 11 : 10–26) والمدراش والتّلمود : تارَح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عيبر بن شالَح بن أرفكشاد بن شيم بن نُوَح . وفي «قصص الأنبياء» للنّيسابوري : «زارح» ، القريبة من تسميته في القرآن الكريم «آزَر» .

فلمّا دخل حُكماء الملك إلى حضرته حيّوه قائلين : «أيها الملك ، لتحيا أبد الدّهر !» . ثم تقدّم كبير الحكماء فروى للملك الظاهرة التي شهدتها أبصارهم ، والتّعبير أو المعنى الذي نسبوه إليها . فلما أتمّ الرّواية قال : «والآن من بعد إذن الملك ، نُشير بأن يدفع مولانا دية[1] هذا الوليد لأبيه ويُهلكه وهو رضيع ، وإلا كان مصيرنا ومصير أبنائنا من بعدنا في مستقبل الأيام أن نلقى الخراب على يديه وأيدي أبنائه» .

أصغى الملك بإمعان إلى كلام أتباعه وأقرّ ما أشاروا به . فبعث برسول إلى تارَح ، ولمّا مَثُل هذا بين يديه أخبره بكل ما رواه الحُكماء ، ثم قال : «ولهذا فلتسلّمنا الطفل السّاعة ، لنقتله قبل أن تحلّ بنا الشّرور ، وسوف نجزيك مكانه ملء خزائنك ذهباً وفضّة !» .

فأجاب تارَح : «قد استمعتُ إلى كلام مولاي ، وكلّ ما يرغب به فأنا له مُطيع ، ولكن فليتفضّل مولاي الملك بأن يسمح لي بذكر أمر طُلب مني في الأمس بالذّات ، وبأن ألتمس منه المشورة حول ذاك» .

«لا بأس عليك ، فلتفعل» ، أجاب نمرود . «هات ما عندك» .

قال تارَح : «البارحة جاء إلى بيتي أيون بن موراد ، راغباً أن يبتاع مني الفحل الكريم الذي تكرّمتم مولاي الملك بمنحه إياي ! فقال أيون : «بع هذا الجواد وسأعطيك كامل ثمنه ، وكذلك أملأ إصطبلك بالتّبن والعَلَف» . فأجبتُه بأني لا أستجيز لنفسي التّصرّف بعطيّة الملك بغير إذنه . ولذا فإني الآن أيها الملك أطلب منك المشورة !» .

أجاب الملك بحدّة مُغضباً : «أفيقع في بالك أن تبيع عطيّتي ، وأن تستغني عن ذاك الفحل المسوّم طمعاً بالذّهب والفضّة والتبن والعَلَف ؟ هل أنت بحاجة إلى مثل هذه الأشياء الخسيسة حتى تقايض عليها بالجواد الذي وهبتك إيّاه ، وهو الفحل الذي لا نظير له في البلاد ؟» .

---

(1) بالأصل : ثمن ، وكلمة دية استعملناها لموافقة الترجمة ، وإن لم تكن في الأصل . وفي ترجمتنا هذه نحاول المحافظة على روح النصّ أولاً ، ثم صوغه بعربية سليمة ثانياً .

فركع تارَح أمام الملك ، وقال : «فإن كان هذا حُكمك بخصوص ذاك الجواد ، فكيف تطلب مني أن أسلّم وليدي ؟ فإن كان الذهب والفضة لا يفيان بثمن عطيّة مولاي ، فكيف تراهما يفيان بثمن وليدي ؟» .

استشاط الملك غضباً لهذا الكلام ، ولاح الشرّ جلياً على محيّاه ، ممّا دفع تارَح إلى أن تابع كلامه قائلاً : «أنا وكلّ ما أملك رهنٌ للملك ، بما في ذلك وليدي ، بغيرما مال ولا ثمن» . قال الملك : «لا ، بل مالاً أدفعُ فيه» . فقال تارَح : «بإذن مولاي ، أعطني ثلاثة أيام للتفكير في الأمر ، ثم إني أريد مُفاتحة أم الصبي به» . فأجابه نمرود إلى ما طلب ، وانصرف تارَح من حضرته .

بعد انقضاء الأيام الثلاثة أرسل الملك إلى تارَح ، يأمره بإشخاص الصبي ، وإلا أهلكه هو نفسه مع أسرته كلّها . فلمّا تسلّم تارَح أمر الملك ، وأيقن أنه ماض فيما يريد ، بادر إلى ابن أحد عبيده ، وكان وُلد في يوم مولد أبرام ، فأرسله إلى الملك نمرود ، وقبض المال دونه ، مدّعياً أنه وليده .

فما كان من الملك إلا أن قتل الصبي بيده ، بينما أخفى تارَح امرأته وأبرام وحاضنة الصبي في مغارة نائية ، مُرسلاً القُوت إليهم سراً كل أسبوع . فأقام أبرام في هذه المغارة إلى أن بلغ العاشرة .

في غضون هذه السنوات ، كان هاران بن تارَح הרן בן תרח ، أخو أبرام الأكبر ، تزوّج فولدت له امرأته ابناً سمّاه «لُوط» לוט ، وولدت له أيضاً ابنتين ، سمّت إحداهما «ملكاه» מלכה والأخرى «ساراي» שרי . وعند ولادة ساراي كان عمر أبرام اثنين وأربعين عاماً . وكان أبرام منذ نُعومة أظفاره محبّاً للرّبّ . ووهبه الله قلباً حكيماً متفتّحاً للفهم ولتجلّي عظمة الخالق ، وقادراً على مجابهة أباطيل الوثنيّة .

لمّا كان طفلاً نظر إلى نور الشمس البديع في رابعة النّهار ، وبهائها المتلألئ على الكائنات كلّها ، فقال : «لا ريب أن هذا النّور السّاطع هو الله ، فإليه أتوجّه بعبادتي» . فعبد الشمس وصلّى إليها . لكن لما تلا النّهار وأفل بريق الشمس ، بدأ شعاعها الذي كان غامراً الأرض بالضّياع بين طيّات الظلام ، وفيما راح

الأصيل ينوخ بكلكله إذا بالفتى يكفّ عن الابتهال قائلاً : «هذا لا يكون إلهاً . أين تُراي إذاً أجد الخالق الذي صنع السّموات والأرض ؟» ، فنظر باتّجاه الغرب والشمال وإلى الشرق ، فرأى أن الشمس اختفت من أمام ناظريه ، وأضحت الطبيعة محتجبة خلف طيّات اليوم المنصرم . ثم طلع القمر ، فلمّا رآه أبرام يلتمع في كبد السّماء بما معه من آلاف النّجوم ، قال : «لعل هذه تكون الآلهة التي خلقت الأشياء كلّها» . وبادر بصلاته إليها . ولكن لمّا لاحت تباشير الفجر وشحبت النّجوم ، وشحّ نور القمر ببياض فضّي ثم ضاع في أوبة بهاء الشمس ، أدرك أبرام ساعتها كُنه الله قائلاً : «ثمّةَ إلهٌ قُدرتُه أسمى وذاتُه أرفع وأقوى ، وما هذه الأجرام المنيرة إلا من بعض مخلوقاته وصُنع يديه» .

وفيما كان أبرام بن تارَح يتدرّج يومياً في مسالك الحكمة والمعرفة في بيت نُوَح ، دون أن يدري أحدٌ شيئاً عن أحواله ، كان رعايا الملك نمرود ، الذين حكموا بابل يعمهون في طرقهم الضالّة ، برغم ما يُنذرونَه من وقوع البَوار بهم وبكل ضالّ . ورعايا نمرود هؤلاء لقّبوه أمْرافِل אמרפל[1] . وكان مردان بن نمرود أشدّ ضلالاً من أبيه ، وحتى تارَح الذي ما برح كبير أمناء الملك ، غدا هو الآخر عابداً للأصنام . فكان في بيته اثنتا عشرة صورة كبيرة من خشب وحجر ، يمثّل كلّ منها إلهاً خاصّاً بشهر من شهور السنة ، يصلّي إليها ويتعبّدها .

عندما بلغ أبرام الخمسين من العمر غادر بيت معلّمه نُوَح ، عائداً إلى تارَح أبيه . فلمّا أبصر الاثني عشر صنماً المتوسّدة مكان الشّرف في دار أبيه ، استطار الغيظ في نفسه ، وآلى على نفسه مُقسماً : «وحياة الرّبّ ، لئن لبثتْ هذه الصّور ها هنا ثلاثة أيام أُخَر ، فليجعلني ربّي الذي خلقني واحداً منها» .

خفّ أبرام إلى أبيه الذي كان مُحاطاً ببطانته ، فسأله قائلاً : «أخبرني يا أبتي ، أنّى لي أن أجد الله الذي خلق السّموات والأرض ، وخلقكَ وخلقني وخلق البريّة أجمعين في هذا العالم ؟» . فأجاب تارَح : «يا بنيّ ، خالق الكائنات موجود معنا هنا في الدّار» . قال أبرام : «فأرنيه إذاً يا أبتاه» .

---

(1) اسمه في التّوراه (تكوين – 14 : 1) : «أمرافِل ملك شِنعار» אמרפל מלך־שנער .

فاصطحب تارَح أبرام إلى حجرة داخلية ، وأشار إلى الأصنام الاثني عشر وأخرى عديدة أصغر منها حولها ، قائلاً : «هذه هي الآلهة التي خلقت السّموات والأرض ، وخلقتكَ وخلقتني والعالمين أجمع» .

فقصد أبرام أمّه قائلاً : «يا أمّاه ، ها هو ذا أبتي قد أطلعني على الآلهة التي خلقت الأرض وكلّ ما عليها ، لهذا أرجو منك أن تهيّئي لي جَدياً لأقدّمه قُرباناً لآلهة أبي ، كيما تأكله وتتلقّاه بعين الرّضا» .

ففعلت أم أبرام كما طلب منها ، وقدّم أبرام الطعام الذي هيّأته أمام الأصنام ، لكن أيّاً منها لم يمدّ يده ليأكل . فقال أبرام ساخراً : «ربما لم يلاقِ مذاقُها مزاج الآلهة ، أو فلعلّ كميّة الطعام تبدو ضئيلة . سأقدّم قرباناً أكبر ، وأجتهدُ أن يكون أشهى طعماً» .

في اليوم التالي طلب أبرام من أمّه أن تهيّئ جَديين ، بأفضل إتقان ، فلمّا قدّم ذلك أمام الأصنام وجد النتيجة ذاتها التي رآها في اليوم الفائت . تعجّب قائلاً : «ويلٌ لأبي ولهذا الجيل الضالّ ، ويلٌ لمن تميل قلوبهم إلى الزّيغ والباطل فيعبدون صوراً بكماء لا تحسّ ، فلا هي تشمّ ولا تأكل ولا تنظر ولا تسمع . لها أفواه ولا تتكلّم ، لها أعين ولا تُبصر ، لها آذان ولا تسمع ، لها أيدٍ ولا تتحرّك ، لها أرجل ولا تمشي»[1] . فما كان منه إلا أن استلّ أداة من حديد وراح يكسّر بها الأصنام جميعها ما خلا واحداً ، وضع بيده حديدته التي استخدمها[2] .

تناهت ضجّة الفعل إلى أذني تارَح ، فهرع إلى الحجرة حيث ألفى الأصنام المحطّمة والطعام تقدمة أبرام مُزجىً أمامها . فصرخ بغضب ونقمة في وجه ابنه : «ما هذا الذي فعلته بآلهتي ؟» . فأجاب أبرام : «قد جلبتُ لها طعاماً شهيّاً ، وإذا بها تمدّ أيديها إليه بشراهة دفعةً واحدة ، كلّها ما عدا كبيرها ، أزعجه جشعها ، فلم يُمسك نفسه أن استلّ تلك الحديدة التي بيده وراح يحطّمها جميعاً» .

---

(1) هذه العبارات ترد في مزامير داود – 115 : 5 .

(2) قصّة تكسير أبرام لأصنام أبيه ليست في التّوراه ، بل هي تراث شفهي مصدره المدراش والتّلمود ، يُصنّف من الأجَداه .

أجاب تارَح بغضب : «كذبٌ ما تقول ، ألهذه الصّور نسمة حياة لكي تتحرّك وتفعل كما تدّعي ؟ ألم أصنعها بيدي هاتين ؟ فكيف يمكن لكبيرها أن يحطّم الأصغر منه ؟» . فكان ردّ أبرام : «إذاً فيمَ عبادتُك آلهةً لا تحسّ ولا تقوى على شيء ؟ آلهةٌ لا هي تقدر على معونتك فيما تحتاج ، ولا هي تسمع دعاءك ؟ ألا ساء ما تفعل وما يفعل أمثالك من عبادة صور الحجر والخشب ، ناسين الله ربّنا خالق السّموات والأرض وكلّ ما بينهما . ها أنتم تكسبون على أنفسكم الخطايا ذاتها التي جُوزي بها أجدادكم بمياه الطّوفان . فلتكفّ يا أبتاه عن عبادة هذه الآلهة ، قبل أن يحلّ السّخط بروحك وأرواح أهل بيتك !» .

وتناول أبرام الحديدة من يد الصّنم المتبقّي ، فحطّمه هو الآخر أمام ناظري أبيه . فلمّا رأى تارَح فعل ابنه ، هرع إلى الملك نمرود واشتكى فعل أبرام قائلاً : «إن لي ابناً وُلد منذ خمسين عاماً ، قد فعل كذا وكذا . فأرجو منك استحضاره للمُثول بين يديك ليُحاكم» .

فلمّا استُدعي أبرام أمام الملك ، قال له نمرود : «ما هذا الذي فعلتَ بآلهة أبيك ؟» . فأجاب أبرام الملك بالكلام ذاته الذي قاله لأبيه . ولمّا قال : «ليس للصّنم الكبير من قوّة أو بأس ليفعل ذلك» ، تابع أبرام قائلاً : «إذاً فيم عبادتُك إيّاه ؟ لماذا تحثّ رعيّتك على سلوك طرقك الباطلة ؟ أولى لك أن تعبد ربّ العالمين العظيم ، القادر على كل شيء ، المُحيي والمُميت . الويل لك يا ذا القلب السّقيم . فلتتحوّلْ عن طرقك الضالّة ، واعبُدْ مَن بيده مقاليد حياتك وحياة شعبك جميعه ، أو تُمتْ مَذموماً مَدحوراً[1] ، أنت ومَن يتّبعك» .

فأمر الملك مُقدّمي جيشه بالقبض على أبرام والزَّجّ به في السّجن ، فمكث في محبسه عشرة أيام . وفي ذيّاك الحين جمع نمرود مجلسه ، وخاطب أمراءه ومُقدّميه قائلاً : «سمعتُم بأفعال أبرام بن تارَح ، لقد واجهني بازدراء ولم يُقم وزناً لسُلطاني . ها هو ذا بات في السّجن ، فأخبروني ما العقاب الذي ينبغي إنزاله بهذا الرّجل الذي اجترأ على مقامي هكذا ؟» .

---

(1) نترجم عبارات التّلمود بما يُقابلها مألوفاً في العربية لا بالورود التوقيفي ، فليُعلم .

فأجاب المستشارون : «مَن يجترئ على مقام الملك فجزاؤه الموت شنقاً ، أما هذا الرّجل فقد أتى على ما هو أدهى ، لقد كفر بآلهتنا وحقّرها ، لذا فينبغي أن يُحرق حيّاً . فإن حَسُن في عيني الملك ، ليوقَد أتونٌ نهاراً وليلاً ، ثم ليُلقى أبرام هذا في وسطه» .

فحَسُن هذا الرأي في عين الملك ، وأمر بتجهيز ذلك على الفور . فلمّا أُوقد الأتون حتى بلغ حرارة عظيمة مُهلكة تجمّع المُقدّمون كلّهم ، والشعب جميعاً كباراً وصغاراً ، ليشهدوا تنفيذ حُكم الملك . وصعدت النّساء حاملات أولادهن سطوح بيوتهن ، بينما تجمهر الرّجال بأعداد غفيرة . غير أن الجميع بقوا مبتعدين لم يجرؤ أحد منهم على الدنوّ من الأتون للنّظر فيه ، من شدّة اللهب .

وحدث أنه عندما أُتي بأبرام من السّجن ، ورآه الحُكماء والسّحرة ، رفعوا عقيرتهم وهتفوا بنمرود : «أيها الملك ، هذا الرّجل نعرفه حقّ المعرفة ! فما هو سوى ذاك الوليد الذي حدث عند مولده قبل خمسين سنة أن ظهر نجم عظيم فأهلك أربعة نجوم أخرى . لقد هزئ بك أبوه وخدعك إذ أرسل إليك عوضاً عنه صبيّاً آخر سواه لكي يُقتل بمقتضى أمرك» .

عندما سمع الملك هذا الكلام استشاط غضباً ، وأمر بإحضار تارَح على الفور أمامه . وقال له : «سمعتَ ما أكّده أمامي هؤلاء السَّحَرة ، فأنبئني الآن ، هل كان ما قالوه صدقاً ؟» . فلم يجد تارَح مناصاً ، وهو يرى مدى الغيظ العظيم الذي استبدّ بالملك ، من أن يجيب بصدق : «الأمر كما أخبر الحُكماء . لقد أخذتني الرّأفة بابني ، فأرسلتُ لك بدلاً منه ابن واحد من عبيدي» .

فسأله نمرود : «مَن ذا الذي أشار عليك بذلك ؟ قُل الصّدق لتنجو !» . ارتعدت فرائص تارَح من سَورة غضب الملك ، فأجاب متسرّعاً ، دون أن يعي ما يقول ، وكان الأمر غير ما روى : «إنه هاران ابني الآخر ، هو الذي أشار علي بذلك» . وكان هاران لا طاقة له للتّمييز في مسألة الإيمان ، ولم يقرّر لنفسه أيعبد أصنام أبيه أم إله أبرام ؟ فلمّا أُلقي بأبرام في السّجن ، قال في قلبه : «لنرَ أيُّ الرّبّين أقوى ، فإن فاز أبرام تبعتُ دينه ، وإن هلك فلأتبعنّ دين الملك» .

فلمّا أدان تارَح ابنه هكذا ، أجاب نمرود : «إذاً يلقى هاران عقوبة أبرام ذاتها ، وليُقذف بابنيه معاً في الأتون» .

فكان أن أُحضر أبرام وهاران أمام الملك ، وعلى الملأ أمام السكّان جميعاً تمّ تجريدهما من أثوابهما ، وقُيّدت أيديهما وأقدامهما ، ثم أُلقيا في الأتون الملتهب . ولشدّة حرارة النّار كان مصير الاثني عشر رجلاً الذين قذفوا بهما في النّار أنهم هلكوا فيها ، لكن الله بسط رحمته على عبده أبرام ، فرغم أن الحبال التي تقيّده احترقت من حول أعضائه ، إذا هو يمشي بداخل النّار دون أن يمسّه منها سوء[1] . أما هاران أخوه ، الذي لم يكن قلبه متعلّقاً بالله ، فقد لاقى حتفه على الفور في اللّهب المُستعر . وصاح خُدّام الملك بمولاهم : «هو ذا أبرام يمشي دون أن يمسّه سوء بين ألسنة اللّهب ، لقد تَلِفت الحبال التي قيّدناه بها ، أما هو فلم يمسَسْه أيُّ ضرر كان» .

أبى الملك أن يصدّق هذا الأمر العجيب ، فأرسل بعض مَن يثق بهم من مُقدّميه لينظروا في الأتون ، فلمّا أيّدوا كلام مرؤوسيهم عقدت الدّهشة لسان الملك ، وأمر مُقدّميه بإخراج أبرام من النّار . لكنهم مع ذلك لم يتمكّنوا من القيام بأمره ، حيث أخذت ألسنة اللّهب تستعر في وجوههم ، فهربوا من هولها وحرارتها اللاهبة . وعنّفهم الملك قائلاً بوجه الهُزء : «عجّلوا ، أخرجوا أبرام وإلاّ مات !» . لكن محاولتهم الثانية باءت بالفشل كالأولى ، وفيها احترق ثمانية منهم حتى الموت .

ثم نادى الملك أبرام قائلاً : «يا عبد إله السّموات ، فلتخرج من النّار وتقدّم أمامي» . فمشى أبرام خارجاً من النّار والأتون ، ووقف في مواجه الملك . ولمّا رأى الملك أن أبرام لم تنكوِ منه شعرة واحدة بلهيب النّار ، أخذ منه العجب كلّ مأخذ .

---

(1) من الهام الإشارة إلى أن قصّة إلقاء أبرام في النّار ليست في متن التّوراه ، بل هي كسابقتها (تحطيمه أصنام أبيه) تراث شفهي الأصل مصدره المدراش والتّلمود ، ويُصنّف من ضمن الأجَداه אגדה (شرح نصوص تاريخية وأخلاقية وردت في التّوراه وفسّرها فقهاء اليهود) . وفيها رواية كاملة لحكاية أبرَهام (إبراهيم) : מעשה אברהם «مَعَسيه أبرَهام» .

فقال أبرام : «إله السّموات ومَن بيده كلّ شيء ، قد نجّاني من النّار» . فركع أمراء الملك أمام أبرام ، لكنه ابتدرهم بقوله : «ليس إليّ الرّكوع ، بل لربّ الكون العظيم الذي خلقكم . اعبدوه واسلكوا سُبُله ، فهو مَن يُنجي من الهلاك ويحفظ من الموت» .

ووَقَرَ في قلب الملك هو الآخر الارتياع من أبرام ، فقدّم إليه عديداً من الهبات الثمينة ، وفارقه بسلام .

وحدث بعد ذلك أن ناحور[1] נחור وأبرام اتّخذا لهما امرأتين ، اسم امرأة ناحور مِلكاه ، واسم امرأة أبرام ساراي أو يِسْكاه[2] יסכה . وكانتا كلاهما ابنتي هاران ، أخي زوجيهما[3] .

عقب حوالي العامين من نجاة أبرام من الموت حرقاً ، حلم الملك نمرود برؤيا غريبة . فإذا به في هذا المنام يقف بجيشه في وادٍ ، وقبالته أتون عظيم تتأجّج فيه النّار ، فأتى رجل يُشبه أبرام من داخل الأتون ووقف أمام الملك ، حاملاً بيده سيفاً مَسلولاً . ثم اقترب الرّجل من نمرود والسّيف مُصلتٌ بيده ، فنكص نمرود على عقبيه وهرب . وعندما هرب الملك رماه الرّجل ببيضة ، وتدفّق من هذه البيضة نهر ماء غزير ، فغمر الملك وجيشه بأكمله ، فغرقوا كلهم ما عدا الملك وثلاثة رجال معه . وأثناء انطلاقهم هاربين ، استدار الملك لينظر رفاقه الذين نجوا معه ، فإذا بهم رجال طوال القامة ذوو مظهر جليل ويرتدون حُللاً ملكيّة . ثم اختفى النّهر ولم يبق سوى البيضة . ثم في تتمّة حلمه رأى الملك نمرود طيراً يخرج من هذه البيضة ، فحلّق هذا الطير فوق رأسه ونقر عينيه . وهبّ الملك من نومه برُعب كبير ، وراح قلبه يدقّ بسرعة ودمه يفور في عروقه .

---

(1) ناحور هو ثاني أبناء تارَح الثلاثة : أبرام وناحور وهاران . (تكوين – 11 : 27) .

(2) من المألوف تعدّد أسماء وألقاب شخصيّات التراث الدّيني اليهودي ، كما سنرى أدناه بمثال يعقوب (يسْرَئيل) وهَدَسّاه (إستير) ، هذا عدا عن الرّموز بأسماء كبار الرّبانيين ، مثل : شلومو يتسحاقي (راشي רש"י) وموشيه بن ميمون (رَمبَم רמב"ם) . وألقاب التكريم مثل : رابينو هَقّدوش רבינו הקדוש «سيّدنا القديس» ليهودا هَنّاسي .

(3) يرد في التّوراه (تكوين – 20 : 12) على لسان أبرام (وهنا صار اسمه أبرَهام) : «وبالحقيقة أيضاً هي أختي ابنة أبي ، غير أنها ليست ابنة أمي ، فصارت لي زوجة» .

في الصّباح أرسل الملك خلف حُكمائه ، وبعد أن حكى لهم حلمه طلب منهم تعبيره . فأجاب أحد الحكماء ، واسمه أنوكي אנכי قائلاً : «ما هذا المنام إلا تعبير عن الشرّ الذي سيصدر عن أبرام وذُرّيته تجاه الملك في المستقبل . وإنّه لَمُنبئ عن اليوم الذي سيهبّون فيه ويدحرون مولانا الملك مع جيوشه كلّها . ولن ينجو خلا الملك ذاته ، مع ثلاثة ملوك يحاربون إلى صفّه . أما النّهر والطير اللذان يخرجان من البيضة ، فما هما إلا رمزٌ يدلّ على ذرّيّة هذا الرّجل ، الذي سيصدر عنه مُطلق الضّرر تجاه أمّتنا وشعبنا في الأيام الآتية» .

«هذا هو تعبير الحلم ، ومعناه الوحيد . وأنت تعلم تمام العلم ، يا مولاي الملك ، أنه منذ عدّة سنوات خَلَت أدرك حكماؤك هذا الأمر بعينه ، ولكن لسوء طالعك تركتَ هذا الرّجل على قيد الحياة . فطالما بقي حيّاً يُرزق ستبقى مملكتك في خطر» .

وقعت كلمات أنوكي موقعاً بليغاً من نفس الملك ، فكلّف بعض رجاله بالانسلال خفيةً للقضاء على حياة أبرام . ولكن مؤامرة الملك تمّ إحباطها على يد إليعيزِر الدّمشقي[1] דמשק אליעזר خادم أبرام ، الذي أهداه له نمرود ، إذ علم بنوايا الملك ، فنبّه سيّده قائلاً : «قُم فبارح هذا المكان على عَجَل ، لتنجو من الهلاك» . وأخبر أبرام بحُلم الملك ، وبمغزاه كما عبّره له الحُكماء .

لذلك خفّ أبرام إلى بيت نُوَح وبقي مختبئاً فيه ، بينما جعل خُدّام الملك يفتّشون بيته والدّيار المُحيطة دون جدوى ، ومكث مدّة طالت ، حتى أن النّاس نسوه بالكلّيّة .

وحدث خلال هذه المدّة من الاستتار أن تارَح ، الذي كان ما يزال ذا حُظوة عند الملك ، جاء خفيةً لزيارة ابنه . فخاطبه ابنُه قائلاً : «هلُمَّ بنا نرحل إلى أرض غير هذه الأرض ، لنمضِ إلى أرض كنعان . تدري أن الملك يطلب حياتي ، ورغم أنه يضعك موضع التّكريم والرّفعة ، فإن المال والسّلطة لا يساويان شيئاً

---

(1) إليعيزِر الدّمشقي هو الخادم الذي أهداه نمرود لأبرام عقب خروجه من النّار ، يذكره أبرام في نصّ التّوراه : «وقيّم بيتي هو إليعيزِر الدّمشقي» (تكوين – 15 : 2) .

بالقياس إلى الموت والأذيّة . هيّا فلترحل معي يا أبتاه ، ذَرْكَ من هذا الباطل الذي تتبع ، لنعش بأمان ونعبد الله العظيم الذي خلقنا ، بسعادة وسلام» .

وألحَفَ نُوَح وابنه شيْم إضافة إلى أبرام ، حتى أذعن تارَح لهم ونزل عند رغبتهم . وهكذا خرج تارَح وابنه أبرام ولُوط ابن ابنه ، وساراي كنّته ، وأهل بيته بأكملهم ، مغادرين «أور الكلدانيين» אור כשדים مدينة بابل ، فرحلوا إلى أرض حاران חרן ، وأقاموا هناك[1] .

وكانت البلاد حولهم نضيرة ومُخصبة ، وثمّة مجالٌ رَحْب للرّجال والماشية التي بحوزتهم . أما أهل حاران فقد أجلّوهم وكرّموهم ، وباركهم الله ونظر إلى أهل بيتهم بعين الرّضا .

وحدث بعد أن أقام أبرام في حاران ثلاث سنين أن الرّبّ تجلّى له وقال : «أنا الرّبّ إلهك الذي أنجاك من نار الكلدانيين ، وخلّصك من قدرة أعدائك . فإن أصغيتَ جاداً إلى كلامي واتّبعتَ أوامري مُثابراً عليها ، لأكثرنّ نسلك بعدد نجوم السّماء ، حتى يصير كل مَن أبغضَكَ يخشى بأسَك . وتحلُّ عليك نعمتي وعلى أعمالك رضاي . فقُم الآن وخُذ ساراي امرأتك ومَن يتبعك وكلّ ما تملك ، وامض إلى أرض كنعان כנען فأقم بها ، وأكونُ إلهك وأباركُكَ»[2] .

فرحل أبرام بأهل بيته إلى أرض كنعان مُطيعاً أمر الرّبّ ، وكان عمره لمّا بارح حاران خمساً وخمسين سنة . فلمّا ضرب أبرام خباءه في أرض كنعان بين سكّان البلد ، تجلّى الله له ثانيةً وقال : «هذي هي الأرض التي وهبتُك إيّاها مُلكاً لك ولنسلك . فتكون الأجيال الخارجة منك كثيرة كنجوم السّماء ، والبلاد التي أطلعتُك عليها تكون ميراثهم على الأرض» .

وصنع أبرام مَذبحاً لله ، ودعاه باسم الرّبّ[3] . وبقي مُقيماً في كنعان ، ثم بعد أن مضت له هناك ثلاث سنين مات نُوَح بعمر تسع مئة وخمسين عاماً .

---

(1) قابل على نصّ التّوراة (تكوين – 11 : 31) .
(2) قابل على نصّ التّوراة (تكوين – 12 : 1–5) .
(3) قابل على نصّ التّوراة (تكوين – الأصحاح 13) .

بعد ذلك عاد أبرام إلى حاران ليزور أباه وأمّه ، فبقي معهما في حاران خمس سنين . وفي خلال هذه المدّة عكف على نشر عبادة الله الأزلي ، فأفلح في كسب الكثيرين من أهل حاران[1] عباداً لله الواحد الأحد .

وتجلّى له الربّ في حاران قائلاً : «قُم فامض إلى أرض كنعان ، أنت وامرأتك وكلّ مَن وُلد في بيتك ، وكلّ النّفوس التي اهتدت بك في حاران . فلك أعطي الأرض من نهر مصر إلى حدّ النّهر الكبير نهر الفُرات» .

ففعل أبرام كما أمره الربّ ، ومضى معه لُوط ابن أخيه من حاران إلى أرض كنعان . وكان للُوط قطعان ماشية وفيرة ، ذلك أن الله قد بارك أعماله . فحدث أن رُعاة لُوط ورُعاة أبرام اشتجروا ودبّت بينهم البغضاء بخصوص حقوق الرّعي وموارد الماء ، فاختصموا فيما بينهم . لذلك قال أبرام للُوط : «إنّك لمخطئ ، وبسبب رُعاتك صيّرتني مَكروهاً في أعين جيراننا . رُعاتُك يوردون قطعانهم في أراض هي مُلكٌ للغير ، وعلي أنا تقع الملامة بالنتيجة . ما أنا إلا غريب نازل بهذه الدّيار كما تدري ، فعليك أن تأمر خدمك بالكفّ عمّا هم فاعلون» .

لكن برغم تحذيرات أبرام ، ظلّ رُعاة لُوط يختصمون مع رُعاة أبرام ، ويخرقون مراعي جيرانهم . ثم في نهاية الأمر تكلّم أبرام بجدّية قائلاً : «لا تكن خُصومة بيني وبينك فنحن أقربون ، غير أننا نفترق الآن كلٌّ إلى سبيله . فلتمض حيثُ تشاء ، اختر مكان إقامتك أنّى تحبّ ، أنت وماشيتك وكلّ ما تملك ، ولكن بعد الآن فلا تلازمني . وإمّا يصيبنّك خطرٌ فإني مُسارعٌ إلى نجدتك ، وأكون معك في الأمور كلّها ، ولكن لتعتزلنّ عنّي ، إليك رجائي» .

فرفع لُوط طَرْفَه ورأى البُقعة المواجهة لنهر الأردن הירדן ، فأبصر سهولاً نضيرة ومزارع خصبة وديراً تُبهج المرء ، مَراعيها فسيحة ومياهها غزيرة ، تسرّ النّاظرين . فارتضى لُوط بالدّيار ، وارتحل إليها ونزل إلى سِدُوم סדם ، مُعتزلاً بسلام عن أبرام ، ومعه ماشيته وجميع ما يملك . أما أبرام فقد بقي وأقام في غياض مَمْرا ממרא بالقرب من حِبْرون חברון .

---

(1) ينسبها مؤرّخو السّير إلى حَرّان من حواضر الرّافدين القديمة ، في جنوب تُركية اليوم .

«وكان أهل سِدُوم أشراراً خاطئين أمام الرّبّ جداً»[1] .

وفي هذه الأيام ، كانت سِدُوم ومعها أربع مُدُن أخرى يسكنها ناسٌ ذوو أفعال شرّيرة ، تثير سخط الله العليّ القدير ونقمته . وفي الوادي غرسوا بستاناً جميلاً يبلغ امتداده عدّة مراحل ، وكان مُزداناً بالفواكه والأزاهير ، وكل ما يُمتع النّظر ويُسكر الحواسّ . فكان النّاس يختلفون إليه أربع مرّات في السنّة بالصّخب والعزف والرّقص ، ويقترفون أعمال الفسق وعبادة الأوثان ، مُتمادين في ذلك إلى أبعد الغايات . ولم يكُ ثمّة مَن ينبس بكلمة ترهيب أو تقريع .

وكانوا في حياتهم اليوميّة قُساة القلوب وغدّارين في آن معاً ، يظلمون الغرباء ويستغلّون كل مَن توقعه المقادير في حبائلهم . فإن قدم تاجر جوّال مدينتهم ، وضعوا أيديهم على مَتاعه إما بالقوّة أو بالحيلة ، فإن احتجّ أو اشتكى هزؤوا به أو طردوه .

فحدث مرّة أن رجلاً من عيلام كان مسافراً إلى مكان يلي سِدُوم ، فبلغ مدينتهم هذه عند مغيب الشمس . وكان بحوزته جحش وعليه سَرج ثمين علّق عليه بضائع نادرة وغالية الثّمن . فلمّا لم يعثر له على مكان يأوي إليه ويأتمن عليه دابّته ، نوى أن يُمضي ليلته في أزقّة سِدُوم ، ثم يتابع رحلته في الصّباح . فصادف أن أحد سكّان سِدُوم - ويُدعى حِيْدُود חדוד - أبصر بهذا الغريب ، فدنا منه بخبث ومراوغة يسائله : «من أين الرّجل ؟ وإلى أين تقصد ؟» . ردّ الغريب : «قدمتُ من حبرون ، ومقصدي ما يلي مدينتكم هذه ، لكن ها هي الشمس قد أفلت وليس أمامي مكان ألجأ إليه ، فها أنا ماكثٌ هنا في الأزقّة . معي خبز وماء لنفسي ، وتبنٌ وعَلَف لراحلتي ، ولذا فلستُ مضطراً لأحد» .

أجاب حيدود : «لا ، هذا لا يجوز ، تعال فبِتْ عندي ، ولن أكلّفك شيئاً بل أقوم أيضاً بأوَد دابّتك» . واصطحب حيدود الغريب إلى داره ، فنزع السّرج الثمين من على ظهر الجحش والأمتعة التي كانت عليه ، وأودعها في خزانته ، ثم طرح للجحش عَلَفاً وللغريب لحماً وشراباً ، فأكل من زاده وبات عنده .

---

(1) تضمين حرفي من متن التّوراه (تكوين - 13 : 13) .

في الصباح قام الغريب باكراً يقصد متابعة رحلته ، لكن حيدود قال له : «تناول فطورك أولاً ، ثم فلتتابع طريقك» . وبعد أن أكل الرّجل قام ليمضي في طريقه ، فتمنّع عليه حيدود قائلاً : «قد مضى من النّهار جلّه ، فلتبقَ عندي هذا اليوم أيضاً ثم ترحل» .

فبقي الغريب في بيت حيدود حتى صباح اليوم التالي ، ثم اعتذر عن دعوة حيدود الملحّة للبقاء يوماً آخر ، وتجهّز للرّحيل . فقالت امرأة حيدود : «مكث الرّجل يومين ولم يدفع شيئاً» . فأجابها حيدود : «الزمي الصّمت يا امرأة» . ثم جلب للغريب جحشه ، وودّعه قائلاً : «صحبتك السّلامة» .

قال الغريب : «مهلاً ، سرجي وبساطي الملوّن المحزّم بحبال ، وأمتعتي ، أين هي كلّها ؟» . قال حيدود متعجباً : «ماذا ؟» . فتابع الغريب قائلاً : «قد سلّمتُك بساطاً جميلاً محزّماً بحبال ، وأنت خبّأته في دارك» .

قال حيدود مُبتهجاً : «آه ، نعم ، الآن أعبّر لك حُلمك هذا . فرؤياك حبالاً تدلّ على أن عمرك طويل كالحبال عندما تُمدّ من أوّلها لآخرها ، وأما رؤياك بساطاً ملوّناً فتعبيره أنك في يوم ما ستمتلك بستاناً مليئاً بالزّهور والثّمار اليانعة» . فأجاب الغريب : «لا يا ربّاه ، أنا لم أكن أحلم . . قد سلّمتُ إليك بساطاً ملوّناً محزّماً بحبال ، ولقد خبّأتَ ذلك كلّه في دارك» .

فقال حيدود : «ها قد عبّرتُ لك منامك وأطلعتك على فحواه ، فلا داعي لترداد ذلك . النّاس عادةً يدفعون لي لتعبير مناماتهم أربع قطع فضيّة ، أما أنت فسأكتفي منك بثلاثة فحسب» .

استبدّ الحنق بالغريب من هذا التصرّف الشائن ، وادّعى على حيدود أمام محكمة سِدُوم بسرقة أمتعته . فلمّا روى كلّ من الرّجلين قصّته ، قال القاضي : «صَدَقَ حيدود ، فهو مُعبّر منامات وذلك عنه معروف» . فقال حيدود للغريب : «وبما أنّك قد ادّعيتَ علي كاذباً ، فعليك أيضاً أن تدفع لي كامل حقّي ، أربعة قطع فضيّة ، فضلاً عن ثمن أربع وجبات أكلتها عندي» . أجاب الرّجل : «أدفع قيمة طعامك بكل سرور ، إن أنت أرجعت إلي سَرجي وأمتعتي» .

ومضى الرّجلان يتبادلان الشتائم والسّباب ، فطُردا من المحكمة ، وانضمّ الرّجال في الشوارع إلى طرف حيدود ، فتشاجرا مع الغريب وطردوه من المدينة ، بعد أن سلبوه كل ما يملك .

وكان النّاس في سِدُوم إن دخل مدينتهم فقيرٌ يعطونه صدقةً ليُقال إنهم أهل برّ وإحسان ، ولكنهم أبرموا فيما بينهم اتفاقاً بألاّ يعطيه أو يبيعه أحد زاداً ، أو أن يُسمح له بمغادرة المدينة . فكان الرّجل بالنتيجة يموت جوعاً ، فيستردّ النّاس المال الذي أعطوه إيّاه . لا بل يسلبون ما يستر بدنه من أسمال بالية ، ويدفنونه عارياً في البرّيّة .

وفي إحدى المرّات ، أرسلت ساراي خادمها إليعيزِر إلى سِدُوم للسؤال عن أحوال لُوط وأهل بيته . فلمّا دخل المدينة ، أبصر إليعيزِر رجلاً من سِدُوم يتشاجر مع غريب بعد أن احتال عليه ، فإذا بالغريب يخفّ إلى إليعيزِر ويستجير به طالباً العون . قال إليعيزر للسّدُومي : «ماذا أنت فاعلٌ بهذا الرّجل الفقير ؟ حُقّ لك أن تخجل بتصرّفك هكذا مع غريب في وسط مدينتك !» .

فأجاب السّدُومي : «أأخوكَ هو ؟ ما شأنُك أنتَ بخُصومتنا ؟» ، وتناول حجراً فشَدَخَ به هامة إليعيزِر ، فراح دمه يشخب على الأرض . ولمّا أبصر الرّجل الدّم أمسك بتلابيب إليعيزِر صائحاً : «ادفع لي أجر الفَصد ، إذ خلّصتُك من هذا الدّم الفاسد ، هيّا ادفع لي بالعَجَل فهكذا تقضي شريعتنا» .

فقال إليعيزِر مندهشاً : «عجباً ! أتجرحني وتطلب عليها أجراً ؟» . فلمّا أحجم إليعيزِر عن الدّفع ، أخذه السّدومي إلى المحكمة ، وراح هناك يكرّر مطالبته بالأجر . قال القاضي مُخاطباً إليعيزِر : «حَكَمنا عليك بأن تدفع للرّجل أجره ، فلقد أسال دمك ، وهكذا تنصّ شريعتنا» .

فما كان من إليعيزِر إلا أن دفع المال المترتّب ، ثم رفع الحجر وضرب به القاضي بقوّة ، فشخب دمه نازفاً بشدّة . وقال إليعيزِر : «هاكَ إذاً ! وبحسب شريعتكم فلتدفعوا أجري لهذا الرّجل ، ومالكم لا لزوم له عندي» . وخرج من المحكمة .

وفي مرّة أخرى ، دخل سِدُوم رجلٌ فقير ، ولمّا أحجم الجميع عن إعطائه ما يأكل ، فقد تضوّر جوعاً حتى كاد يتلف ، وصادف أن مرّت به ابنة لُوط . وراحت تمدّه بالقُوت عدّة أيام ، فتعطيه خبزاً كلّما ذهبت تستقي المال لأبيها . فلمّا رأى أهل المدينة الرّجل ما يزال على قيد الحياة ، تعجّبوا للغاية كيف أمكنه البقاء بغير زاد ، وبادر ثلاثة منهم لمراقبة حركات الرّجل وسَكَناته . فلمّا أبصروا ابنة لُوط تعطيه طعاماً ، أمسكوا بها واقتادوها إلى القُضاة الذين حكموا عليها بالموت حرقاً ، وتمّ تنفيذ العقوبة بها .

وثمّة بنتٌ أخرى قدّمت طعاماً لغريب ، فحُكم عليها بأن طُلي بالعسل جسدها ، وعُرّضت للسع النّحل حتى لاقت حتفها .

لهذه الأفعال الرّديّة ، أصاب سِدُوم وأخواتها المُدُن الأربع الهلاك بنار مُحرقة من السّماء ، ولم ينجُ من أهليها خَلا لُوط وعائلته ، لمحبّة الله عبده الصّالح أبرام .

* * *

الفصل الثالث
من مولد يصحاق إلى وقعة شِكيم[1]

«وافتقد الله ساراه ، فحبلت وولدت لأبرَهام ابناً في شيخوخته»[2] .

وعندما وُلد يصحاق[3] יצחק صنع أبرَهام[4] אברהם تكريماً لأجله مأدبة عظيمة ، دعى إليها كبار الشيوخ كافّةً وذوي النَّسَب والأعيان في ديرته ، من أمثال أبيمِلك אבימלך ومُقدّمي جيشه ، وتارَح أبي أبراهام ، وناحور أخاه ، اللذين سافرا من حاران لحضور الحفل ، وكذلك كان شيْم مع ابنه عيبر من بين الحضور . وهنّؤوه جميعاً من صميم قلوبهم ، فكان قلب أبراهام مُفعماً بالسّرور .

وكان يشْمَعيل[5] ישמעאל ، ابن هاجار הגר وأبرَهام ، مُغرماً بالصّيد ورياضات البريّة ، فكان يتنكّب قوسه في كل وقت . وفي إحدى المرّات عندما كان عمر يصحاق حوالي خمس سنوات ، صوّب يشمعيل سهمه نحو الصّبي صائحاً : «الآن أرميك» . فلمّا رأت ساراه هذا الفعل خشيت على حياة ابنها ، ووقع في قلبها حقدٌ على ابن خادمتها ، فتكرّرت منها الشكوى مراراً لأبرَهام على أفعال الفتى ، وألحّت عليه أن يُبعد كلاً من هاجار وابنها من قبائه ، وبإرسالهما ليعيشا في مكان آخر .

---

(1) ينسب مفسّرو التّوراه شِكيم إلى مدينة نابلس المعروفة ، وهكذا يُسمّيها اليهود اليوم .

(2) تضمين شبه حرفي من التّوراه ، تكوين - 21 : 1-2 .

(3) يُرسم الاسم : (ي ص ح ق) ، ويُلفظ بالإشكنازيّة : «يتْسْخاق» ، لتعذّر نُطق حرف صَدي (לا) لدى اليهود الغربيين . ولم نرسم الاسم هنا إسحاق على ما هو مألوف في العربية ، لأن هذا يقلب مَبنى الاسم تماماً ، ولا ننسينّ أن ثمّة قيمة عددية تقابل الأسماء حسب أبجديّة (أبجد هوز . .) ، فإن قولبنا الأسماء تغيّرت بالكليّة .

(4) في التّوراه (سفر التكوين 17 : 5 و 15) أن الله أمر أبرام أن يغيّر اسمه إلى أبرَهام ، واسم امرأته ساراي إلى ساراه .

(5) بالعربية إسماعيل ، حسب قاعدة إقلاب السين والشين . ومعنى الاسم : الله سَمِعَ .

ولمدّة من الوقت ، عاش يشْمَعيل مع أمّه في برّيّة فاران[1] פארן ، مستمتعاً على الدّوام بهوايته في الصّيد . ثم ارتحلا إلى مصر ، حيث اتّخذ يشمعيل له امرأة وولُد له هناك أربعة بنين وابنة . لكنه سرعان ما آب إلى موطنه الأثير في البرّيّة ، فأقام ثلاثة أقباء ، لنفسه ولجماعته ولأهل بيته ، إذ باركه الله فكان صاحب ماشية وقطعان كثيرة .

وحدث بعد هذا بأعوام ، أن أبرَهام تاقَت نفسه إلى هوىً مَكنون يعاوده دوماً ، فعزم على زيارة ابنه ، وكان أن أعلم ساراه بعزمه وانطلق بمفرده على مَتن بعير . وصل مكان إقامة يشْمَعيل قُرابة وقت الظهر ، فألفى ابنه غائباً عن بيته في الصّيد . ولاقى أبرَهام معاملةً رديئة من طرف امرأة يشْمَعيل التي لم تعرف من يكون ، وأبَت إعطاءه خبزاً وماءً كما طلب . فلهذا قال لها : «عندما يعود رَجُلك فلتقولي له ، من بعد أن تصفي مُحيّاي ، إن رجلاً عجوزاً من بلاد الفلسطينيين أتى بابك في غيابك ، وقال لي إنه عندما يعود رَجُلك فقولي له أن ينزع المسمار الذي دقّه في قبائه ويبدّله بواحد خيراً منه» . وبعد أن تفوّه بهذا الكلام ، انطلق أبرَهام قافلاً إلى موطنه .

فلمّا عاد يشْمَعيل إلى بيته رَوَت له امرأته ما جرى ، ووصفت له هيئة الرّجل وكرّرت كلماته ، فأدرك يشْمَعيل أن أباه زاره وعومل بازدراء . فكان أن طلّق يشْمَعيل امرأته ، وتزوّج بنتاً من أرض كنعان .

بعد حوالي ثلاث سنوات ، زار أبرَهام ثانيةً قباء ابنه ، فكان ابنه أيضاً غائباً عن البيت ، غير أن امرأته كانت لطيفة ومضيافة ، فرَحّبَت الغريب الذي لم تعرفه بالترحّل عن بعيره ، وقدّمت له خبزاً ولحماً . ولهذا قال لها : «عندما يعود رَجُلك فلتصفي له هيئتي وقولي له : أتاك هذا العجوز من أرض الفلسطينين ، وترك لك هذه الرّسالة : المسمار الذي دققته في قبائك جيّد وقيّم ، فانظر أن يلقى اعتباراً لائقاً» . وبارك أبرَهام يشْمَعيل وأهل بيته ، عائداً إلى موطنه .

---

(1) ورد ذكر برّيّة فاران (أو پاران) في سفر التكوين – 14 : 6 ، 21 : 21 (وهنا ذكر إقامة يشمعيل وأمّه هناك) . وفي أطلس أوكسفورد للكتاب المقدّس أنها بأواسط سيناء جنوبي بلاد كنعان ، وهذا التوصيف غير جازم بعد . راجع : *Oxford Bible Atlas*, p. 59 .

فلمّا عاد يشْمَعيل ، سرّه جداً أن يسمع رسالة أبيه ، وشكر الله على ما وهبه من امرأة صالحة ذات شأن ، وبعد مدّة قام وأهل بيته لزيارة أبرَهام ، فمكث عنده في أرض الفلسطينيين عدّة أيام .

بعد أن أقام أبرَهام على هذا الوضع ستاً وعشرين سنة ، انتقل بأهل بيته كلّهم وممتلكاته إلى بِئْر شيبَع באר שבע قرب حبرون . فغرس هناك غيضة وبنى دوراً واسعة ، أبقاها على الدّوام مفتوحة في وجه الفقراء والمحتاجين ، فكان الجائعون يدخلون كيف شاؤوا ويتناولون الطعام على هواهم ، وكان المحتاجون ينالون بكلّ كرم كل ما يلزمهم لمعيشتهم . ولمّا كان أصحاب الشأن يقصدون أبرَهام ليُطروا أريحيته ويُثنوا عليه كان يقول : «إنّما الشكر والحمد لله ، قيّوم السّماء الأزلي خالق كل شيء ومَن بيده ملكوت كل شيء ، وهو وحده الطّاعم الكاسي» .

فكانت عقيدة أبرَهام التي انتهجها حياته كلّها تقوم على إطعام الجياع ، وإكساء ذوي الفاقة ، والرّفق بالمساكين ، والعَدل بين النّاس أجمعين ، وحَمْد الله الأزلي على آلائه ونعمائه[1] .

* * *

وأتت كلمة الرّبّ إلى أبرَهام ، قائلاً : «الآن خُذ ابنك الذي تحبّه ، وقدّمه قُرباناً على محرقة على أحد الجبال الذي أُريك»[2] .

فعندما صدر الأمر إلى أبرَهام ، كان همّه الأكبر – من جُملة فيض من الآلام والوساوس التي ألمّت بتفكيره – هوضرورة إبعاد يصحاق عن أمّه . فلم يقدر أن يطلعها على عزمه ، وكان الصبي معها دوماً . أخيراً ، توجّه إلى قباء ساراه ، فجلس إليها وقال : «ابنك يشبّ وسيصير رجلاً ، ولم يتلقَّ بعدُ أصول العبادة السّماوية . فغداً آخذه معي ليتعلّم سُبُل الرّبّ عند شيْم وعيبر» .

---

(1) برغم هذا كلّه ، لم يتلقّ أبرَهام نصّاً موحىً به من السّماء ، حسب التّوراه ، بل كان أول نص سماوي هو ما أُنزل على مُوسى النّبي ﷺ كما سيمرّ أدناه .

(2) قابل على التّوراه : تكوين – 22 : 2 .

فأجابت ساراه : «فلتمض يا سيّدي ، ولتفعل كما قلت ، لكن لا تأخذنّ الصّبي مسافة بعيدة ، ولا تُقصينّه عن ناظريّ مدّة طويلة» . فقال أبرَهام : «فلتَدعي الله من أجل سعادة ابنك ، وسعادتي ، وسعادتك أنت» .

في خلال تلكم الليلة استبدّ القلق بساراه بخصوص فراقها القريب عن يصحاق ، فعجزت عن النّوم ، ولمّا بان لناظريها في باكر الصّباح زوجها والصبيّان اللذان برفقته ، متأهّبين للانطلاق في رحلتهم ، ضمّت يصحاق إلى حضنها ، وبكت بمرارة ، وتنهّدت قائلة : «أوّاهُ يا بُنيّ ، يا بُنيّ ! كيفك يسعني أن أدعك تنأى عني ، يا وحيدي ، ويا مُنيتي وأملي ؟» . ثم التفتت نحو أبرَهام وقالت : «فلتحرص على الصبيّ كل الحرص ، فهو صغير وغَضّ العُود ، لا تَدَعه يمشي في الحرّ ، ولا تدعه يُضنيه السّفر فيهزل جسمه» .

وألبست يصحاق أفخر ما لديه من ثياب ، وشيّعته مع إمائها ، حتى فارقهنّ أبرَهام وعُدن إلى بيوتهنّ .

تابع أبرَهام ويصحاق رحلتهما مع الفتيين الاثنين ، وهما يشْمَعيل ابن أبرَهام ، وإليعيزِر قيّم بيته . ففي أثناء الطريق كلّم يشْمَعيل إليعيزِر قائلاً : «أبي ينوي تقديم ابنه يصحاق قُرباناً للمحرقة ، فأكون أنا وارثه ، أما أنا ابنه البكر ؟» . أجاب إليعيزِر : «كلا ، فأبوك قد طردك لئلا ترث ما يملك . بل إلي أنا ، خادمه الأمين ، تؤول ثروته أجمع» .

ولمّا تقدّموا في مسيرهم خاطب يصحاق أباه قائلاً : «أي أبتاه ، ها هي ذي النّار والحطب ، فأين هو حَمَل الأضحية ؟» . فأجاب أبرَهام : «الحقّ أن إلهنا اختارك أنتَ يا بُنيّ ، كمخلوق بلا خطيئة ، قُربان محرقة يليق بعليائه بدلاً من الحَمَل» . فقال يصحاق عندها : «فها أنا إذاً أركع مُطيعاً بالحمد والشكر رغبةَ الله الحيّ» .

قال أبرَهام : «أي بُنيّ ، هل ثمّة من معصية تخفيها في قلبك ، أو أي نَزَغ سوء في فكرك ؟ إن كان من ذلك شيء فلتُبده أمامي يا بنيّ دونما حَرَج ، ولا تُخف عني شيئاً في هذه السّاعة العظيمة» .

فأجاب يصحاق : «وحياة الله يا أبتي ، إن قلبي لم يعرف سوءاً ، ولم يبدر مني ما يستوجب النَّدَم . ومُباركٌ هو الرّبّ الذي اصطفاني اليوم» .

كان هذا الجواب من الصبي مُريحاً جداً لقلب أبيه ، فتابعا طريقهما في صمت ، إلى أن أفضيا إلى البقعة التي اختارها الله . فأقام أبرَهام مَذبحاً للرّبّ ، وكان ابنه يناوله الحجارة ويعاونه في عمله . فإن من يؤمن بالله يتقوّى قلبه على الدّوام ، ورغم أن العيون لتَدمع فإن القلب لراسخٌ مرتبط بالله .

فلمّا تمّت إقامة المذبح أزجى أبرَهام الحطب عليه مرتّباً ، ثم أوثق ابنه يصحاق على الحطب . فخاطب يصحاق أباه قائلاً : «يا أبتاه ، فلتوثقني بإحكام لئلاّ أفسد القُربان بحركة النَّزع . وكُن ثابت القلب يا أبتي ، ولتشحذ السّكين . وأخبر أمي أن فرحها قد راح ، فالابن الذي ولدته في سنّ التّسعين قد هلك بلهيب النّار . وبعدما يفنى جسدي فخُذ معك من رَمادي المتبقّي ، وقُل لساراه : هذا هو يصحاقك ، الذي قُدّم قُرباناً لله» .

فلمّا سمع أبرَهام هذا الكلام بكى بمرارة ، لكن يصحاق تابع بنبرة ثابتة : «هيّا يا أبي ، فلتنفّذ مشيئة الرّبّ» . ومدّ رقبته للسّكين التي في يد أبيه[1] .

* * *

«فعمد أبرَهام إلى الكبش ، فأخذه وأصعده محرقةً بدل ابنه»[2] .

ورشّ أبرَهام دم الكَبش على المَذبح ، قائلاً : «ليكُن هذا الدّم كدم ابني مُقدّماً قُرباناً أمام الرّبّ» . وفي خلال تقديم هذا القُربان الرّباني استمرّ أبرَهام يصلّي قائلاً : «ليكُن هذا كدم ابني مُقدّماً قُرباناً أمام الرّبّ» .

وفيما كان أبرَهام ويصحاق بعيدين في هذه المهمّة ، جاء رجلٌ عجوز إلى ساراه ، قُرب خبائها ، وقال لها : «أتدرين أن أبرَهام قد قدّم يصحاقك قُرباناً أمام الرّبّ ؟ نَعَم ، ورُغم مُقاومته وصياحه ، قُدّم ابنُك أضحية للذّبح» .

---

(1) التّتمة معروفة . وفي المرويات الإسلامية اختلاف : أكان الذّبيح إسحاق أم إسماعيل ؟

(2) تضمين حرفي من التّوراه ، تكوين – 22 : 13 .

فصرخت ساراه صرخة عظيمة من أعماق قلبها ، وارتمت على الأرض ونشجت بمرارة : «واهاً يا بُني ، ليتني أموتُ فداك ! يا مَن ربّيتُك وأطعمتُك ، ويا مَن كانت له حياتي ومحبّتي كلّها . فالآن يُمسي زُهوّي وفرحتي نُواحاً ، إذ استوفت النّار بهجتي . فلتسلُ يا قلبي ! فحياة النّاس أجمعين يُمسكها الله بيده . وليتبارك مَن يتبع وصاياك يا ربّ ، لأنك بارّ وكلامك صدق . لهذا يا ربّ ، ولو فاضت عيناي بالدّمع السّخين ، فإن قلبي مُفعم بالرّضا !» .

ثم قامت ساراه ، وسارت من بِئْر شيبَع[1] إلى حبرون ، وراحت تستقصي على الطريق عن زوجها وابنها ، لكنها لم تتمكّن من معرفة شيء عنهما . فلمّا رجعت إلى مضاربها ، قابلت العجوز عينه الذي كان كلّمها من قبل ، فقال لها : «الحقّ أني كذَبْتُك القول ، فابنُك ما زال حيّاً» .

فكان قلب ساراه أقوى في تحمّل الحزن منه في تلقّي الفَرَح ، ممّا أدّى بهذه الأنباء والصّدمات في قلبها أن لاقت حتفها ، وهكذا ماتت ولحقت بآلها . فلمّا عاد أبرَهام ويصحاق ووجدا ساراه جسداً هامداً ، صاحا بنواح أليم ، وراح خدمهما معهما يندبون الفقيدة بأسى .

* * *

غدا يصحاق في سن التاسعة والخمسين من عمره ، وكانت امرأته رِبْقاه[2] רבקה عاقراً ، فدعا يصحاق الرّبّ أن يفتقد امرأته كما كان افتقد ساراه أمّه ، قائلاً : «يا ربّي ، ربّ السّموات والأرض ، ويا مالئ الثّقلين بخيرك ورحمتك ! قد جئتَ بأبي إلى هذا الموضع من بيت أبيه ومن صُلب آله ، واعداً إيّاه بإكثار نسله بعدد نجوم السّماء ، وبأن تهب لنسله هذه البلاد ميراثاً ومُلكاً . فهلاّ أنلتنا يا الله وعدَك الذي وعدتَ ؟ إليك يا الله نرنو بآمالنا ونتضرّع أن تهبنا ذُرّيّة ونسلاً كما وعدتنا ! يا إلهي ، إليك أرنو بأملي !» .

---

(1) بالعربية : بئر السّبع ، وفي نصّ التّوراه (تكوين – 21 : 31) مغزى هذه التّسمية .

(2) يُترجم اسمها في التّوراه المعرّبة عن التّرجمة السّبعينيّة : رفقة ، وهذا غلط لغوي . وفي سفر التكوين (25 : 20) أنها كانت بنت بتوئيل الآرامي من فدّان آرام .

واستمع الله إلى دُعاء يصحاق ، فولدت له امرأته توأمين ذكوراً ، فسمّت أحدهما وهو الأول «عيْسَو» עשו ، والثاني «يعقوب» יעקב [1] . وكان عيْسَو كَلفاً بالصّيد ورياضات البَرّ ، ويعقوب مُقيماً بالخيام يتلقّى من جدّه أبرَهام سُبُل الرّبّ وتعاليمه .

فلمّا كان الفَتَيان بعمر خمسة عشر عاماً ، مات أبرَهام بعمر مئة وواحد وسبعين عاماً . ولمّا درى بموته سكّان أرض كنعان ، أقبلوا بملوك ديرتهم وأمرائها مُسارعين لتكريم جُثمانه ، وكذلك أقبل أنسباؤهم المقيمون في حاران جميعاً ، وأيضاً بنو إمائهم ، لحضور مراسم جنازته . فدفنه يصحاق ويشْمَعيل في مغارة مَكفِلاه ، وكلّ من كان على صلة به أقام عليه الحداد عاماً كاملاً .

وكان أبرَهام رجلاً عزّ وجود أمثاله تحت عين الشّمس . فمن غَضَارة عُمره عَبَدَ خالقه وسار على الدّرب القويم أمامه ، ومنذ مولده وحتى ساعة موته كان إلهه دوماً معه . وكان يُحدّث بنعماء الله كلّ من قابله ، وأنشأ لأبناء السّبيل من العابرين روضةً وفتح أبوابه بكل كَرَم للمحتاج والمنقطع وابن السّبيل . ومن أجل أبرَهام نظر الرّبّ بعين الرِّفق إلى أهل الأرض ، وعقب موته بارك الرّبّ يصحاق ابنه ورَفَعَ شأنه إلى أبعد حدّ .

وازداد ابنا يصحاق في القوّة والسّنّ . فكان عيْسَو رجلاً خبيث الطويّة ، تعتريه الأهواء ، ومُغرماً بالصّيد والبَرّ . أما يعقوب الذي كان راعياً ، فكان امرءاً ذكياً ودمث الأخلاق ، ماضياً في طريق التُّقى الذي بيّنه له أبرَهام .

وحدث أن عيْسَو راح يصطاد في البريّة يوماً ما ، عندما صادف خروج نمرود للشأن ذاته . ولمّا كانا كلاهما صيّادين فائقين فقد دبّت منافسة بليغة بين الاثنين ، أعقبتها غيرةٌ مُميتة . وصادف أن أبصر عيْسَو نمرودَ [2] لمّا كان أتباعه كلّهم - خلا اثنين - بعيدين عنه . فكمن عيْسَو ، ولمّا مرّ نمرود حيث كان مكمنه أوتر قوسه وسدّد سهمه فأصمى نمرودَ في سُويداء قلبه .

---

(1) قابل على التُّوراه : تكوين - 25 : 26 .

(2) ذكرنا أننا عددنا الأسماء العِبْرية جميعها ممنوعة من الصَّرف ، فليُعلم .

ثم هرع عيْسَو من مكمنه ، واشتبك في عراك مُميت مع تابعيّ نمرود ، فصرعهما وأرداهما قتيلين كليهما . وجرّد من على منكبي نمرود الرّداء العجيب المذكور سلفاً ، والذي كان صنعه الله لآدام . ثم خفّ عائداً إلى البيت ، فأدرك قباء أبيه وقد أعيا ، وكان بغاية الجوع والتّعب والإنهاك . فقال عيْسَو ليعقوب أخيه[1] : «أطعمني من هذا الطّبيخ الأحمر ، فإني قد أعييتُ» . فقال يعقوب : «بِعني اليوم بِكريّتك» . ففكّر عيْسَو في نفسه : «لا ريب أنني الآن مُطالبٌ بدم نمرود ومقتولٌ به» ، فقال : «إنّما أنا صائرٌ إلى الموت ، فما لي والبِكريّة ؟» .

وهكذا ابتاع يعقوب من عيْسَو حقّ بكريّة المواليد בכורה ، وكذلك قبراً لنفسه في مغارة مَكفِلاه[2] . فأعطى يعقوب لعيْسَو خُبزاً وطبيخاً من العَدَس ، فأكل وشرب ومضى لشأنه . فبالمال كان ابتياع يعقوب هذين الحقّين ، وبعد أن تمّ البيع أعطى أخاه ما طلب .

أمّا جثّة نمرود فعُثر عليها وحُملت إلى بابل ودُفنت فيها . وعاش نمرود مئتين وخمسة عشر عاماً ، وكان مقتله على يد واحد من نَسل أبرَهام ، تماماً كما بانَ له في رؤياه .

* * *

ولمّا نال يعقوب البَركة التي كانت مقصودةً لعيْسَو[3] ، كان يصحاق شيخاً طاعناً في السّنّ ، فقال عيْسَو : «قَرُب يوم موت أبي ، وإنّي لآخذٌ بثأري من يعقوب جزاءً بما فعله في حقّي» . فأُخبرت رِبْقاه بهذه النيّة ، فاستدعت يعقوب ودفعته للهرب إلى حاران ، عند أخيها لابان ، ليُقيم هناك حتى يزول غيظ أخيه[4] .

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 25 : 30 . لكن رواية قتل عيْسَو لنمرود ليست فيها ، ولا يُفهم مغزى كلامه عن الموت إلا بهذه الحواشي التفسيرية هنا .
(2) راجع ما تقدّم أعلاه في الفصل الأول ، وكذلك سفر الخروج – 49 : 29–30 .
(3) قابل على التّوراه : تكوين ، الأصحاح 27 . وذلك تمّ بترتيب من رِبْقاه التي كانت تؤثر يعقوب على عيسو لزواج هذا الأخير من بنات حثّ ، ولم ينتبه يصحاق لشحّ بصره .
(4) قابل على التّوراه : تكوين – 27 : 41 .

فدعا يصحاق يعقوب وباركه وأوصاه ، فقال له[1] : «لا تأخذ امرأة من بنات كنعان ، فإن أبي أبرَهام كذلك قال ، من كلمة الرّبّ ، الكلمة التي وعد بها نسلك هذه الأرض إن أطعنا الرّبّ واتّبعنا أوامره بإخلاص . قم فامضِ إلى حاران إلى بيت بتوئيل أبي أمّك ، واحرص على ألا تنسى الرّبّ إلهك وطُرُقه جميعها . لا تلتفت يميناً أو يساراً إلى أباطيل النّاس الذين تمضي إليهم . والله القدير يحلّ عليك نعمةً في أعين أهل البلد ، واتّخذ لنفسك ثَمّ زوجة على ما يروق لك ، وليهب الله بَركة أبرَهام لك ، ويُنْميك ويكثّرك وتكون جمهور شعوب في الأرض ، ويردّك إلى هذه الأرض ولك بنون وعزٌّ وغنى» .

فأطاع يعقوب أباه ، ومضى إلى أرض بني المشرق ארצה בני־קדם (بلاد بين النّهرين נהרים) . وكان في السابعة والسبعين من عمره لمّا غادر بِئْر شيبَع . ولمّا رحل يعقوب من بيت أبيه دعا عيْسَو ابنه إليفاز אליפז وقال له خفيةً : «امضِ فاتبع يعقوب وليكن قوسُك بيدك ، فاكمن له واقتله بين الجبال ، واغنم كل ما معه من مال ونفائس ، ثم عُد إلي» .

وكان إليفاز عندها في الثالثة عشرة من عمره ، غير أنه كان لا يُجارى في سرعة المشي ، ويُجيد الرّمي عن القوس . فأطاع أباه ، وأخذ معه بعضاً من الرّجال وتبع يعقوب فأدركه عند تُخوم أرض كنعان[2] . ولمّا رأى يعقوب إليفاز آتياً خلفه توقف وانتظر مجيئه ، يحسب أن ابن أخيه يحمل رسالة من دياره . لكن إليفاز لما اقترب امتشق سيفه ، فسأله يعقوب عن سبب لحاقه به ، فأجاب الفتى : «كذا وكذا أمرني أبي ، وأنا لا أجرؤ على عصيان أوامره» .

فلمّا أدرك يعقوب نيّة عيْسَو ، ورأى على الفتى علائم العَزم على تنفيذ ما كُلّف به ، بادره ورجاله بالقول : «خذوا كل ما معي ، كل ما أعطانيه أبي وأمي في يديّ ، ولتبقوا على حياتي . وتكون هذا المكْرُمة عمل خير لكم»[3] .

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 1–4 .

(2) أرض كنعان المذكورة مراراً في التّوراه والتّلمود هي الجزء الجنوبي من فلسطين إلى حدّ صحراء النَّقَب وصحراء سيناء . هذا علماً أن الكنعانيين أثرياً قطنوا سوريا أيضاً .

(3) رواية محاولة قتل يعقوب هذه لا ترد في نص التّوراه ، بل هي إضافة تفسيرية في التلمود .

وأعطى الرّبّ في أعينهم حُظوة ليعقوب ، فتركوه يتابع رحلته بأمان . وأما الذّهب والفضّة وكل متاع نفيس كان أخذه معه من بيت أبيه ، استولى عليه إليفاز ورفاقه وحملوه إلى عيْسَو . فكان عيْسَو ممتعضاً بشدّة لأنهم أذعنوا لرجائه ، وضمّ الكنز الذي استولوا عليه إلى خزائنه .

وتابع يعقوب رحلته إلى حاران . فلمّا وصل جبل موريا מריה نزل ونام ليلته . وتراءى له الرّبّ وقال : «أنا الرّبّ إله أبرَهام وإله يصحاق أبيك . وهذه الأرض التي أنت نائمٌ عليها أُعطيها أنا لنسلك ، فلا تخف ها أنا معك أحفظك حيثما اتّجهت ، وأُكثّر نسلك بعدد نجوم السّماء . وأُبدّد شمل أعداءك أمامك ، فيحاربونك ولا يظفرون بك . وبالعزّ والثروة أردّك إلى أرض أبيك»[1] .

فانتبه يعقوب من نومه مسروراً بوقع الرؤيا الجميلة والمطَمْئنة التي تبارك بها في نومه . وسمّى ذلك المكان «بيت إيل» בית־אל [بيت الله] .

ولمّا بلغ يعقوب حاران أخبر خاله لابان לבן كيف سلب منه إليفاز بن عيْسَو كل ما يملك ، وطفق يبكي معلناً أنه بات فقيراً محتاجاً . فقال لابان : «إنك أنت عَظمي ولحمي ، فأنا أقوم بأوَدك حتى ولو كنتَ مُفلساً»[2] .

* * *

من بعد أن بحث لابان بغير جدوى عن يعقوب لمّا رَحَلَ فاراً بامرأتيه وأبنائه وممتلكاته[3] ، ومن بعد أن قال الله لابن بتوئيل בן־בתואל[4] : «إيّاك أن تكلّم يعقوب بخير أو بشرّ»[5] ، وجّه لابان بعد فراقه عن صهره رُسُلاً إلى عيْسَو ، وأوصاهم قائلاً : هكذا قولوا :

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 11–19 .

(2) والذي جرى بعد ذلك أنه عمل خادماً لدى خاله سبع سنين فزوّجه ابنته الكبرى ليئاه ، ثم سبع سنين أخرى فزوّجه الصغرى راحيل . انظر التّوراه : تكوين – 29 .

(3) انظر التّوراه : تكوين – أصحاح 30–31 ، حول خلاف يعقوب مع خاله لاستغلاله إيّاه ، وتحوّل ثروته إليه ، ورحيله عائداً إلى أرض أبيه بزوجتيه ليئا وراحيل ابنتي لابان .

(4) أي لابان بن بتوئيل الآرامي خال يعقوب ذاته . انظر التّوراه : تكوين – 25 : 20 .

(5) قابل على التّوراه : تكوين – 28 : 11–19 .

«قدمنا من عند لابان خالك وقريبُك ، وهو يقول لك : أتدري ما فعله أخوك يعقوب بي ؟ أتاني منهوكاً ومعوزاً ، فآويته إلى بيتي مُكرّماً مودوداً . إليه قدّمتُ ابنتيّ زوجتين ، وخادمتا ابنتيّ أيضاً أعطيتهما له . فباركه الله بسببي ، فجمع ثروة طائلة . وولد له بنون وحاز عبيداً وإماء ، وأغناماً وثيراناً وماشية من كل نوع ، بأعداد كبيرة ، وكذلك فضّةً وذهباً . ثم بذلك كلّه مضى فتركني ، هرب خلسةً بكل ممتلكاته صوب أرض كنعان ، بلاد أبيه . حتى أنه حرمني من تقبيل ابنتيّ ، وساقهما كالمسبيّتين بالسّيف ، وشرٌّ من هذا كلّه أنه سرق آلهتي . وعند مَعْبَر[1] يَبُق מעבר יבק تركتُه بكل ما معه ، فإن رغبت بإدراكه فثمّ أنتَ واجده . فلتذهبنّ إذاً ولتفعلنّ به ما يحلو لقلبك»[2] .

فلمّا سمع عيْسَو هذه الكلمات من رُسُل لابان ، تجدّد في قلبه كل ما كان لاقاه من يعقوب في حقّه ، واضطرم في قلبه الكُره والحُقد على أخيه . فجمع بنيه وخدمه ، وكل أهل سِعير שעיר ، فتألّفت منهم فرقة تعدّ أربع مئة راجل ، وتقدّم على رأسهم ليلاقي يعقوب وينال منه .

بعدما بارح رُسُل لابان عيْسَو ، رحلوا إلى أرض كنعان ، وأخبروا رِيْقاه هناك بترتيباته وعزمه على الكمين ليعقوب ومعاقبته . فخفّت رِيْقاه لإرسال اثنين وسبعين رجلاً لمعونة ابنها الأثير عليها . فأدركوه عند مَعْبَر يَبُق ، فقال يعقوب لمّا رآهم : «هذا جُند الله» ، وسَمّى المكان : مِحَنَايِم[3] מחנים .

فتبيّن يعقوب خَدَم أبيه ، وسألهم عن أحوال أهله ، فأجابه الرُّسُل : «هم بخير ، وكذلك نؤدّي إليك إليك هذه الرّسالة من أمّك : «قد أتاني الخبر يا بُنيّ أن أخاك عيْسُو قاصدٌ إليك في طريقك برجال سعير . وعليه فأنا أرجوك أن تستمع

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين – 32 : 22 . وفي التّرجمة العربية للتّوراه ، نقلاً عن التّرجمة السبعينية : «مَخَاضَة يَبُوق» . فهذا دليل على سوء هذه التّرجمة ، فإن كانت المفردة الواردة بالعِبْرية מעבר (مَعْبَر) تتوافق مع العربية تماماً بالمبنى والمعنى ، فلماذا تدور ونترجمها عن اليونانية بالمخاضة ؟ خاصة أن لها صلة بتسمية «العِبْري» .

(2) ليس في التّوراه خبر هذه الرّسالة من لابان إلى عيسو ، إنما فيها فحوى هذا الخطاب بين لابان ويعقوب عند جبل جِلعاد . قابل على التّوراه : تكوين – 32 : 25–55 .

(3) قابل على التّوراه : تكوين – 33 : 3 (في المسوراتية ، أما السبعينية فالآية 2) .

كلامي . فعندما تراه لا تكُ متهوّراً ولا متعنّتاً ، بل فلتبادره التحيّة بالرّفق واللّين ولتتحفه بالتّقدمات النّفيسة من الخيرات التي باركك الله بها . وعندما يخاطبك فلتُجبه بالحلم واللّطف ، فيزول عنك غضبه . لا تنسينّ أنه أخوك الأكبر ، وإنه لمن واجبك إجلاله وتكريمه»[1] » .

فبكى يعقوب لكلمات أمّه ، لكنه نزل عند رغبتها . فوجّه رُسُلاً قدّامه إلى عيْسَو ، لينقلوا إليه الكلام كما أوصت أمّه . فأدرك الرُّسُل عيْسَو ورَبعه ، وقالوا له كما أمرهم يعقوب ، ولكن عيْسَو أجاب بإباء قائلاً : «كلاّ ، فالحقّ هو ما نمي إلى مَسْمَعي من قبل ، وأنا أعلم بما فعله يعقوب بلابان ، وكيف ردّ جميل قريبه الذي أدناه وأعطاه امرأتين وحلالاً جمّاً ، ففرّ آخذاً معه ابنتي لابان ، وساقهما كالمسبيّتين بالسّيف . وهو لم يُسئ إلى لابان فحسب ، بل بي أيضاً غدر مرّتين واغتصب ما هو لي . وهكذا فإني شاخصٌ اليوم لملاقاته ، وها هو ذا ثأري الذي لبثتُ أترقّبه عشرين عاماً يلوح أمام ناظريّ» .

فلمّا بلغت هذه الكلمات مسامع يعقوب ضاق به الأمر جداً . ولمّا ألفى العَون من الأرض معدوماً ، توجّه إلى الرّبّ ملتجئاً بملء قلبه ودَعاه بإخلاص ليُنجيه من هذه الشّدّة التي ألمّت به وبآله . ثم قَسَم القوم الذين معه وقطعان الماشية إلى فرقتين . وأوكل فرقةً منهما إلى إليعزِر الدّمشقي خادم أبيه أبرَهام ، وأبناؤه معه ؛ والأخرى إلى إلينوس بن إليعزِر وأبنائه . ثم أمرهم بما يلي : «تقدّموا مفترقين ، فإن أُخذت إحدى الفرقتين نَجَت الفرقة الأخرى»[2] .

ثم لمّا قابل عيْسَو سجد إلى الأرض أمامه سبع مرّات ، وأعطاه الله نعمةً في عيني أخيه . وتلاشى حقد عيْسَو وحلّت محلّه طبائع العطف ، فأنهض يعقوب من الأرض واعتنقه وقبّله .

* * *

(1) هذه الرّسالة ليست في متن التّوراه .

(2) يرد في متن التّوراه هنا ، قبل لقاءه بعيسو ، خبر مخاطبة الله إيّاه قائلاً : «لا يعقوب يُدعى بعدُ اسمُك بل يِسْرَئيل» : לא יעקב יאמר עוד שמך כי אם־ישראל .

نزل يعقوب بأهل بيته جميعاً قُبالة مدينة شَكيْم שכם ، وابتاع قطعة أرض لسُكناه من أبناء حَمور חמור بمبلغ خمسين شيْقلاً[1] . وأقام هناك بيته وعاش بسلام وأمان حوالي ثمانية عشر شهراً .

ثم عمل أهل شِكيم احتفالاً عظيماً ، مناسبةً للفرحة والرّقص والغناء واللّهو على اختلاف أنواعه ، وشاركت بنات البلدة في مُجريات الاحتفال . وحدث أن راحيل רחל وليئاه לאה ، امرأتي يعقوب ، ودیناه דינה ابنته اشتدّت بهنّ الرّغبة في حضور مشاهد الفرح هذه ، فمضين إلى المكان الذي تجري فيه الاحتفالات . كان أعيان المدينة حاضرين بأسرهم ، وكان شِكيم שכם ابن الملك أيضاً من بين الحضور .

فصادف أن أبصر شِكيم دیناه ، فخلبت الفتاة لبّه من فورها بجمالها الفتّان ومظهرها البسيط . وسأل عمّن تكون ، فقيل له إنها ابنة يعقوب العِبْري ، الذي نزل منذ مدّة غير بعيدة في أرض أبيه . وبرّح الحبّ بقلبه شديداً ، واستغلّ فرصة سانحةً فجذب الفتاة المذعورة غصباً إلى داره وافتَرَعَها .

فسارعت راحيل وليئاه إلى بيتهما وأخبرتا يعقوب بما جرى . فوجّه على الفور اثني عشر خادماً إلى دار شِكيم لطلب الفتاة ، لكنهم لقوا استقبالاً فاتراً من قبل حاشية الأمير وطُردوا إلى سيّدهم يعقوب . فلم ينبس بكلمة ، بل انتظر بهدوء عودة أبنائه إلى البيت .

في تلك الأثناء ، وجّه شِكيم رسولاً إلى أبيه ، طالباً منه أن يزور يعقوب ويطلب دیناه زوجة له . فامتعض الملك كثيراً ، وطلب ابنه فقال له : «ألم ترُق لنفسك زوجة من بنات بلدنا ؟ ما وجه رغبتك بهذه الفتاة العِبْرية ، الغريبة عن قومك ؟» ، فأجاب شِكيم أباه : «قد حَسُنت في ناظريّ» ، وأقنع أباه بحبّه للفتاة حتى أذعن الملك في النّهاية بأن يطلب أباها يعقوب ويلتمس موافقته للزّواج .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية اليونانية تُترجم عبارة שקל (شيقِل) : شاقل ، ولا ندري من أين أتوها بألف إن كانت في العِبْرية محرّكة بصيريه צירה ، وهي تتوافق مع العربية : ثقل (ومنها : مثقال) . فهذا دلِيل آخر على سوء التّرجمة .

ثم حينما عاد بنو يعقوب إلى البيت ، وعلموا بالحادثة التي تمّ فيها الإساءة البليغة تجاه أختهم الوحيدة ، غلى الدّم في عروقهم . وقالوا : «لا جزاء لهذه الجريمة إلا الموت ، فأختنا دُنّست بالخطيئة العُظمى التي أنذر الله نُوَح وبنيه من اقترافها إن رغبوا في الحياة . الموت لمن دنّس بيتنا ، بيدنا نقتله ونقتل أهل بيته وأهل مدينته كلّها» .

وفيما كان بنو يعقوب يتكلّمون بهذا ، إذا بحَمُور أبي شِكيم يدخل إليهم ويخاطب يعقوب قائلاً : «ابني شِكيم يرغب بابنتك له ، فألتمس منك أن تعطيها زوجةً له ، وخُذوا بنات بلدنا . بلدنا واسع ، وهذه الأرض بين أيديكم فأقيموا معنا واتْجُروا وافعلوا ما يروق لكم ، ولا نريد منكم إلا أن توافقوا على مطالب ابني» . ولمّا اختتم حَمُور مقالته دخل ابنه شِكيم وتابع ما يعرضه أبوه ، قائلاً لأبيها وإخوتها : «هَبوني حُظوةً في أعينكم ، وأعطوني الفتاة زوجةً ، وكل ما تطلبونه مني أعطيكم كما ترسمون لي» .

فأمّا شِمْعُون שמעון وليوي לוי ، اللذان لبثا يتربّصان الدّوائر لإنزال الجزاء للدّنس الذي لحق بأختهما ، فأجابا شِكيم وأباه بطريق المراوغة : «سنفكّر بما تقولان . ها هي أختنا في أيديكما . لكن امهلانا بعض الوقت لنستشير جدّنا يصحاق ، فهو رجل حكيم ، ولديه خير الرأي فيما يتوجّب فعله في حالة كهذه ، وإننا لملتزمون بما يُبديه من رأي» .

فوافق شِكيم على هذا التّرتيب ، وانصرف مع أبيه من بيت يعقوب . ولمّا ذهبا ، راح بنو يعقوب يؤكّدون على تصميمهم بإنزال عقوبة الموت جزاءً وِفاقاً بالرّجل الذي دنّس بيتهم ، ومعه أهل مدينته بأسرهم الذين كانوا السبب في اجترائه على فعله الخسيس .

قال شِمْعُون : «هاكُم الرأي ، نقول للقوم هكذا : «قد ارتضى لنا ربّنا خِلّة الختان ، ولا نستطيع أن نعطي بناتنا وأخواتنا لرجل لم يلتزم عهد الله . فلتصيروا مثلنا وعندها نتصاهر ، وإلا نأخذ ابنتنا ونمضي عنكم» . ثم لمّا يتملّكهم الألم والضّعف ، نهجم عليهم ونبذل السّيف في رجالهم أجمع» » .

فوقعت خطتّه من إخوته موقعاً حسناً ، ولمّا عاد إليهم شِكيم وحَمُور لسماع قرارهم ، أعلنوا أمامهما أن هذه كانت مشورة يصحاق ، قائلين إن جدّهم جزم بأن إعطاء أختهم لرجل أقلف لهو عارٌ يَلزمهم أبد الدّهر .

فجمع شِكيم وأبوه عندها النّاس عند أبواب المدينة ، وأطلعاهم على مطلب بني يسْرَئيل ، وحاولا حثّهم على القيام بما هو مطلوب . فكان النّاس بأجمعهم راضين بالإذعان لملكهم ، ما خلا حَدقام بن يبريد ، والد حَمُور ، وإخوته الستّة . فراحوا يزدرون بيعقوب وأبنائه ويدافعون عن أمّهات مدينتهم اللواتي أحجمن عن السّماح بتعريض أبنائهن لهذا العمل .

قال هؤلاء : «بِئس ما تفتريان ، أليست بنات الكنعانيين يصلحن زوجات ، حتى رغبتما بالزواج من بنات هذا العِبْري الغريب بينكم ؟ إليكم عن هذا الفعل البائر الذي لم يسنّه لكم آباؤكم من قبل ، فهذا فعل نحس . بِمَ تجيبون إخوانكم الكنعانيين عندما يسألونكم عن مردّ هذا الخَبال ؟ وكيف ستبدون في أعين إخوتكم بني حام عندما يُقال : «أمن أجل امرأة عِبْرية يأتي شِكيم وأبوه وأهل مدينته كلّهم هذا البِدعة ؟» . هذا الذّلّ الذي ارتضيتماه لنفسيكما عن طيب خاطر لن نرضخ له ، بل نجمع إخواننا ونقاتلكما عليه فلتعلما ، حتى الموت» » .

فبدأ النّدم ينتاب حَمور وشِكيم على ما تسرّعا في طرحه ، ولكنهما عادا فأجابا : «لا يدخلنّ في ظنّكم أننا إنما نفعل ذلك محبّةً بالعِبْريين ، بل إن هي إلا من باب المُداورة لنُعمي أبصارهم ونأخذ ابنتهم . فلتلبثوا حتى نَنْقَه من الختان ، وساعتها يصيرون وما يملكون لنا كلّهم ، فنتصرّف فيهم كيف نشاء» .

وسمعت دينا هذا الحوار ، فأرسلت خادمةً إلى بيت أبيها تُنبئه وتُنبئ إخوتها بتواطؤ شِكيم . فأقسم شمعون وليوي[1] : «بحياة الربّ إله الكون ، غَداة غدٍ ننقضّ على هؤلاء القوم ، فلا ينجونّ من سطوتنا منهم أحد» .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية اليونانية يُترجم اسم לוי (ليوي) : لاوي ، ومثل ذلك : سفر اللاويين . وهذا عجيب ، فحركة صيريه לֵוִי التي تسم اللام هي بمثابة ياء لا ألف ، وتُنطق كالحركة الفرنسية é . والاسم في الإشكنازية : ليفي .

وهذا ما فعلاه فنفّذا ما عزما عليه ، وانقضّا على القوم في اليوم التالي ، فبينما كانوا يتألّمون من جرّاء الاختتان ، قتل ابنا يعقوب حَمُور وشِكيم وسكّان المدينة أجمع ، وأرجعا أختهما ديناه إلى بيتها .

فلمّا أدرك يعقوب مغبّة تهوّرهما حزن وغضب واستبدّ به القلق . وقال مُستنكراً : «ما هذا الذي فعلتماه بي ؟ نزلتُ هذا البلد وخِلتُ أني أخلد إلى الرّاحة ، فالآن إذ يعلم رَبع هؤلاء بما فعلتما يجتمعون عليّ ويقتلونني فأهلك أنا وأهل بيتي» .

لكن ابنيه أجابا : «هذا كلّه يقع على عاتق شِكيم . أكُنتَ تريدنا أن نكفّ ونسكت ، ونصبر على هذا الفعل والدّنس العظيم ؟» .

وكان عدد الرّجال الذين قُتلوا بأيدي العِبْريين سبعة وأربعين . أما النّساء فأخذوهنّ سبايا .

وحدث عندما غادر شِمعون وليوي مدينة شِكيم ، أن رجلين كانا مختبئين أسرعا إلى مدينة تَفناه תפנה فأطلعا ملكها وسكّانها على ما جناه ابنا يعقوب في شِكيم . فأبى الملك أن يصدّق أن عشرة رجال بوسعهم التغلّب على مدينة ، فوجّه رُسُلاً لاستبيان حقيقة الأمر . وقال : حتى في زمن الملك نمرود ، عندما كان النّاس جبابرة ، لم يكن هذا الأمر ممكناً . لكن لمّا عاد رُسُله وأخبروا أنهم لم يلاقوا في شِكيم كلّها سوى نساء نادبات ، جمع الملك رجاله وقال : تجهّزوا لنذهب ونقاتل العِبْريين ، فنفعل بهم كما فعلوا بإخوتنا في شِكيم .

غير أن أمراءه أجابوه قائلين : «بقومنا وحدهم لا طاقة لنا بهؤلاء العِبْريين . فعشرة منهم أهلكوا مدينة ، ولم يقف في وجههم رجل واحد . لنرسلنّ في طلب المعونة من الملوك المجاورين لنا ، علّنا بذا نتمكّن منهم» .

فلاح للملك في هذا الرأي عين الصّواب ، وأرسل إلى ملوك الأموريين المقيمين بجواره يُعلمهم بفعل بني يعقوب ، ويلتمس معونتهم لمعاقبة هؤلاء . فأجاب ملوك الأموريين طلبه ، وجمعوا حوالي عشرة آلاف رجل ، زحفوا لقتال بني يعقوب .

ففزع يعقوب من ذلك فزعاً شديداً ، وراح ينحو مجدّداً باللّوم على أبنائه لتهوّرهم . فخاطب يهُوذاه יהודה أباه قائلاً : «أتصرّفنا بغير حقّ ، شمعون وليوي وبقيّتنا ؟ لقد دُنّست أختنا ولُطّخ بالعار بيتنا ، وانتُهكت محارم إلهنا . لهذا السبب مكّننا الرّبّ من المدينة . ففيم جزعك ؟ ولِمَ تحزن وتغضب على أبنائك ؟ الله ذاته الذي أوقع برجال شكيم طُعمةً في أيدينا سيُظفرنا بهؤلاء الأموريين القاصدين في طلبنا . طِب نفساً ولا عليك يا أبانا ! لا تخف ، بل لتدعو الرّبّ إلهنا أن يحفظنا وأن يُسلم أعداءنا إلى سطوتنا» .

ثم استدعى يهوداه خدمه وأمرهم بالذهاب لاستطلاع مَن كان زاحفاً إليهم وكم عُدّتهم . ثم خاطب شِمعُون وليوي قائلاً لهما : «تجهّزا ، وكونا بطلين . الرّبّ إلهنا معنا . فليتمنطق كل رجل بسيفه ويتنكّب قوسه ، مؤمناً بالسّماء ، سنحارب هؤلاء الأموريين ونُلاقي الفَرَج» .

وطفق بنو يعقوب وخدمهم وخدم يصحاق ، الذي كان يقيم في حبرون ، يتجهّزون للحرب . وأما يصحاق رئيس أسرتهم فدعا الله لينصرهم ، قائلاً : «يا ربّ ، يا الله ، قد كنتَ خاطبتَ أبي ووعدتَه قائلاً : «سأكثّر نسلَك بعدد النّجوم في السّماء» . وعلي أيضاً أعدتَ هذا الوعد ، والآن ها هي جيوش كنعان قادمة لتحارب أبنائي . فيا ربّ يا إله الكون ، أثنِ هؤلاء الملوك عن عزائمهم ، ودَع رهبة أبنائي تحلّ في قلوبهم وتخضد شوكتهم ، واحملهم على التّراجع والعودة إلى ديارهم بغير إراقة دماء . خلّص أبنائي وخدمهم من قوّة هؤلاء الملوك ، فبيدك أنتَ الجبروت والبأس والقوّة» .

وتلا يعقوب أيضاً صلاةً مَهيبة للغرض ذاته .

فلمّا شارف الأموريون على بني يعقوب وقوّاتهم ، اجتمع الملوك والأمراء ليتشاوروا قبل الشروع في الهجوم ، حيث أن قلوبهم لم تكن قد استكانت بعد من الرّعب الذي حلّ بها من بسالة العِبْريين . واستجاب الرّب لدُعاء يصحاق ويعقوب ، فتضاعف هذا الرّعب والخوف ، ثم استبان بكلام واحد منهم ، ولاقى صدى في قلوب الآخرين :

«ها نحن اليوم مُقدمون على فعل أخرق بمحاولة قتال هؤلاء العِبْريين ، كالسّاعي بقدمه إلى حتفه . ها عشرة رجال بمفردهم تغلّبوا على سكّان شِكيم ، والآن هؤلاء الرّجال العشرة ذاتهم مع خدمهم جميعاً يتربّصون بنا . إن إلههم راض عنهم ، وهم ينعمون بحمايته الخاصّة . ما من آلهة في الأمم الأخرى تقدر أن تأتي بالعجائب التي أبداها في هذا الشأن إلههم تجاه شعبه المختار . ألم يسعى نمرود إلى إهلاك جدّهم الأكبر أبرَهام ، فنجّاه إلههم من نار الأتون المتلظّية ؟ ألم يحارب أبرَهام هذا نفسه الأربعة ملوك الذين أسروا قريبه لُوط الذي كان مقيماً بسِدُوم ؟ إن إلههم جبّار ، وهو يؤثرهم ، وسيهبهم النّصر علينا . وهذا يعقوب نفسه قد نجا من عيْسَو ومعه أربع مئة رجل . وهل بوسع عشرة رجال إهلاك مدينة بغير عَون من السّماء ؟ فحتى لو كنّا نعدّ مئة مرّة أكثر ممّا نحن الآن فسوف نُمنى بالكسرة ، لأننا لسنا نحاربهم هم ، بل نحارب إلههم . لنثنِ أعنّتنا عنهم ونتراجع بغير قتال» .

فواحداً بعد الآخر راح ملوك الأموريين ينكصون على أعقابهم ويعودون إلى ديارهم دون أن يمسّوا يعقوب بسوء . ومكث العِبْريون في مواقعهم متربّصين بالهجوم حتى المساء ، ولكن لمّا لم يأت الأموريون آبوا إلى بيوتهم . ثم تراءى الرّب ليعقوب ، قائلاً : «قُم فاصعد إلى «بيت إيل» وأقم هناك ، واصنع هناك مذبحاً لله الذي أنجاك وبَنيك من السّوء» . فرحل يعقوب وأبناؤه إلى بيت إيل بحسب أوامر الله .

وكان عمر يعقوب يومذاك تسعة وتسعين عاماً . فأقام حوالي ستة أشهر في «بيت إيل» בית־אל [بيت الله] ، التي كانت تُدعى «لُوْزَاه» לוזה [1] سابقاً ، فماتت دبُوراه דברה حاضنة رِبْقاه ، ودفنها يعقوب بأسفل شجرة بلّوط في بيت إيل . أما رِبْقاه بنت بتوئيل ، أم يعقوب ، فماتت أيضاً في ذلك الحين ، ودُفنت في مغارة «مَكفِلاه» מכפלה [2] .

---

(1) في الترجمتين العربيتين للتُّوراه (عن الترجمة السبعينية طبعاً) يرد الاسم : لُوزَ ، رغم أن مَبنى الاسم بالعِبرية لا وجه للفظه إلا : لُوزاه .

(2) راجع ما تقدّم عنها أعلاه في الفصل الأول ، وهي في حِبْرون (الخليل) .

ولمّا غدا يعقوب في سنّ المئة ظهر الله له ودعاه «يسْرَئيل» ישראל[1]. ثم ارتحل بعدُ بأهل بيته إلى حِبْرُون ليُقيم عند يصحاق أبيه. وفي طريق هذه الرّحلة ماتت امرأته راحيل، بعمر خمسة وأربعين عاماً. وأقام يعقوب وأهل بيته مع يصحاق في أرض كنعان كما أمر الله أباهم أبرَهام[2].

* * *

(1) راجع ما تقدّم أعلاه في هذا الفصل. وقابل على نصّ التّوراه (تكوين - 35 : 10) :
ויאמר־לו אלהים שמך יעקב לא־יקרא שמך עוד יעקב כי אם־ישראל והיה שמך. ויקרא את־שמו ישראל:
ترجمة النصّ : «وقال له الله اسمك يعقوب لا يُدعى بعدُ اسمك يعقوب، بل يسْرَئيل يكون اسمك. ودعا اسمه يِسْرَئيل».
وأما اسم يِسْرَئيل ישראל، ومعناه : الله قَوَّمَ، فكتابته في العِبْرية بحرف اليود (الياء) وليس الألف، أما في العربية فنتوّه أن الهمزة حرف أصلي، وإن كانت مكسورة فهي فعلاً تقابل الياء وليس الألف. على أي حال فثمّة إشكاليات في أحرف العلّة وحركات التشكيل ما بين اللغات «السّاميّة» الحيّة : العربيّة - العِبْرية - الآرامية السّريانية.
(2) أما بنو يعقوب فهم 12 ابناً وابنة واحدة (تكوين - 35 : 23-26) :
من امرأته ليئاه : رَؤبين ראובן، شِمعون שמעון، ليوي לוי، يِهُودَاه יהודה، يِسّاسخار יששכר، زَبُولُون זבלון، دِيناه דינה.
من راحيل : يُوسيف יוסף، بِنيامين בנימן.
من بِلهاه بلهة أمَة راحيل : دان דן، نفتالي נפתלי.
من زِلفاه זלפה أمَة ليئاه : جاد גד، أشير אשר. (الجيم تُنطق كجيم مصرية)

الفصل الرابع
من فتوّة يُوسيف إلى بلوغه حُكم مصر

كان يُوسيف[1] יוסף ، ابن يعقوب وراحيل ، لم يشترك في وقعة شِكيم ، إذ كان مجرّد فتىً يافعاً ، أصغر من أن يقاتل مع إخوته[2] . لكنه برغم ذلك تملّكته الرّغبة في أن يُضاهي مكانتهم ، لا بل شعر بأن شُهرته ستطير في الآفاق أكثر . أما أبوه فكان يحبّه بوجه الخصوص لأنه ابن شيخوخته ، وكعربون على هذه المحبّة صنع له قميصاً جميلاً موشّى . فأثارت علائم التميّز هذه في نفس يُوسيف ميله الفطري إلى التفوّق ، وكان لمّا يرى هَنَات في أفعال إخوته يَشي بها إلى أبيه ، فسرعان ما كسب على نفسه عداوتهم ، ولم يستطيعوا أن يكلّموه بسلام .

ولمّا غدا يُوسيف في السابعة عشرة من عمره ، تراءى له منامُه المعروف ، فرواه لإخوته ، فقالوا له : «ألعلّك تملُك علينا أو تتسلّط علينا ؟» . فقصّ يُوسيف الحلم على أبيه الذي أصغى إليه باهتمام ، ولمحبّته الشديدة له قبّله وباركه . ولمّا علم بقيّة إخوة يُوسيف بهذا التصرّف من أبيهم ازدادوا كُرهاً ليُوسيف . لكنه عندما قصّ عليهم حلمه الثاني ، فروى أن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً رآهم له ساجدين استطار غيظهم إلى أبعد الحدود ، حتى أن أباهم يعقوب ذاته لجأ إلى زجر صاحب الأحلام الطّموح[3] .

---

(1) الاسم يُشتهر في العربية : يُوسُف ، وفي العاميّة : يُوسِف . أما مبناه في العِبْرية ونطقه فهو كما رسمناه ، على اعتبار تحريك حرف السامخ (السين) بصيريه צירה ، وهي أقوى من الكسرة وتشبه ياءً مُمالة . ولذا فسنرسم الاسم في كتابنا على هذا النّحو ، وإن كنا خالفنا المعهود ، فنحن هنا نترجم نصّاً اصطلاحياً بأقرب ما ينبغي إلى الدّقّة .

(2) وإخوته الأحد عشر هم : رَوبين ، شِمعون ، ليوي ، يِهوداه ، يسّاكر ، زبولون ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، بنيامين .

(3) قابل على التّوراه : تكوين - 37 : 10 .

وحدث يوماً أن بني يعقوب خرجوا ليرعوا غنم أبيهم ، فتأخّروا في مسعاهم حتى قلقت نفس أبيهم عليهم . وخشي أن يكون أهل شِكيم قد استنجدوا ببعض إخوانهم ليُدركوا ثأرهم من أبنائه لحربهم التي شنّوها على مدينتهم . فطلب يعقوب يُوسيف وقال له : «هو ذا إخوتك خرجوا يرعون عند شِكيم ، ولمّا يرجعوا إلى الحين . فهَلُمَّ فاخرُج في طلبهم ، وائتني بأخبار سلامتهم» .

فجال يُوسيف بعض الوقت في نواحي شِكيم ، فلم يرَ من إخوته أحداً ، ولم يدرِ أين يبحث عنهم ، فصادفه رجلٌ وهو تائهٌ ، فسأله : «مَن تطلب ؟» ، أجاب يُوسيف : «أطلب إخوتي ، أتدري أين اتّجهوا ؟» ، فقال الرّجل : «إي نَعَم ، رأيتُ إخوتك ، وقد سمعتهم يقولون : نمضي إلى دُوتان[1] דתן» .

فلمّا رأى إخوة يُوسيف الفتى مُقبلاً عن بُعد ائتمروا عليه ، فقرّروا قتله . فقال شِمعون : «ها هو صاحب الأحلام مُقبل . والآن تعالوا نقتله ونطرحه في أحد أجباب البريّة ، فلمّا يسألنا أبونا عنه نقول إن وحشاً ضارياً افترسه» . فلمّا سمع رَؤبين مقالهم قال : «لا ، بل لا نفعل مثل هذا . إن أبانا لن يغفر لنا ما حينا هذا الجُرم . بل اطرحوه في بئر ودَعوه يموت» . وهذا الرأي أبداه رَؤبين لكيّ يخلّصه من أيديهم ، ثم يستنقذه فيردّه إلى أبيه .

فلمّا طُرح يُوسيف في البئر (הבאר) ، عملاً بهذا الرّأي ، صاح بإخوته بملء صوته : «ماهذا الذي فعلتُم ؟ لمَ تعاملونني هكذا ؟ ماذا فعلتُ وبمَ أذنبتُ ؟ ألا تخافون الربّ بفعلتكم هذه ؟ أولستُ لحمكم ودمكم ابن يعقوب ؟» . وراح يصيح : «رَؤبين ، يهوذاه ، ليوي ، شِمعون ، أخرجوني من هذا البئر . . آه ، يا بني يعقوب ، ارحموني ! إن أخطأت في حقّكم فتذكّروا وصايا أبيكم ، من لدُن أبرَهام ويصحاق ويعقوب ، بالرّحمة باليتيم وإطعام المسكين وسقاية الظامئ وإكساء الفقير ، أم تُراكم تُمسكون عن رحمة مَن هو لحمكم ودمكم ؟ إن كنتُ أخطأتُ في حقّكم ، فلتسامحوني بحقّ أبينا يعقوب» .

---

(1) في التّوراه المعرّبة عن الترجمة السّبعينية بطبعتها الكاثوليكية : دوتائين ، أما في الطبعة البروتستانتية : دُوثان (بترجمة حرف ثيتا θ اليوناني ثاء) . وكلاهما غلط . ونعود إلى التأكيد على وجوب إعادة ترجمة التّوراه عن العِبرية مباشرة لا اليونانية .

لكن إخوته ابتعدوا عن البئر لئلا يسمعوا صياحه ، وجلسوا يـأكلون طعـامهم المعتاد . وفيما كـانوا يـأكلون ، راحـوا يتشـاورون حـول الوضـع النهـائي لأخيهـم ، فكانوا متحيّرين بين أن يتركوه حيث كان ، أو أن يقتلوه ، أو يرّدوه إلى أبيه . فبينمـا هم يتشاورون ، أبصروا قافلة من اليشْمعيليين مُقبلة ، في طريقهـا إلـى مصـر ، فقـال يهُوداه لإخوته : «ما الفائدة من أن نقتل أخانا ؟ هلمّوا نبيعه لقافلة اليشْمَعيليين هـذه فيأخذونه حيث يشاؤون ، فلعلّه يموت بين شعوب الأرض ، ولا يكـون دمُه يُسفك بأيدينا نحن» .

فوافق الإخوة على هذا الرّأي ، وأن يبيعوا يُوسيف إلى اليشْمَعيليين . ولكـن الذي جرى أنهم فيما كانوا يتمارون في الأمر ، مرّ قوم مِدْيَنيّون يطلبون في دربهم بـئر ماء ، فصادف أن مرّوا بالبئر الذي كان فيه يُوسيف مُلقىً ، ولمّا نظـروا فيـه هـالهم أن يروا فتىً وسيماً طَلق المُحيّا . فجذبوا يُوسيف من البئر وحملوه معهم .

فلمّا مرّوا بإخوة يُوسيف ، رآه هؤلاء معهم فصاحوا : «حَسْبُكم ! ما تظنّون أنفسكم فاعلين ؟ بأي حقّ تسرقون عبدنا الـذي طرحنـاه في البـئر لعصيانه ؟ هلمّـوا فأرجعوه لنا» . أجـاب المِدْيَنيّون : «أعبدُكـم هـو ؟ أخـادمٌ هـو لكـم ؟ يبـدو الأمـر عكس ما تَدّعون ، إذ هو أكثر وسامةً وفراهةً من أيّ واحد فيكم . قد لقينا ذا الفتـى في البئر ، وإنّا لأصحابُه» .

كرّر بنو يعقوب مقـالتهم الأولـى : «أرجعـوا لنـا العبـد وإلاّ أفنينـاكم قَتلاً» . فاستلّ المِدْيَنيّون أسلحتهم ، وأعدّوا العدّة للانخراط في قتال دام على الفور . فقـال شِمعون : «وَيحكمْ ، ألا تعرفون أننا أهلكنا مدينةً عن بَكرة أبيها ؟ وَيحكمْ ، إن لم تردّوا عبدنا لنفعلـنّ بكـم مـا كنّا فعلنـاه بمدينـة شـكيم» . فلمّـا سـمع المِدْيَنيّـون هـذا الكلام خفضوا من أصواتهم ومالوا إلى الرّفق واللّين ، قائلين : «ما لكُم ولهذا العبد الآبق ؟ فلتبيعوه لنا ، ولكم ندفع مـا تشـاؤون» . وهكـذا تمّ عقـد صفقـة بيـع علـى التوّ ، فباع بنو يعقوب أخاهم يُوسيف إلى المِدْيَنيين بعشرين قطعة من الفضّة ، حيـث كان رَؤبين متغيّباً ولم يتسنّ له منعهم من ذلك[1] .

---

(1) في هذه المقاطع زيادات تفسيريّة على التّوراه (تكوين - الأصحاح 37) .

وأخذ المِدْيَنِيّون يُوسيف معهم ، ورحلوا إلى جِلعاد גלעד . لكنهم في أثناء طريقهم ندموا على شراء الفتى ، فقال بعضهم للبعض الآخر : «هذا الفتى تراه تبدو عليه مخايل الفراهة ، لا ريب أن الرّجال الذين ابتعناه منهم قد سرقوه من أرض العِبْريين ، فإن طاف أهله عنه يبحثون لربّما وقعوا عليه في أيدينا فيكون فيه هلاكنا» .

ففيم كانوا يتمارون في ذلك الشأن ، كانت قافلة اليشْمَعيليين التي رآها بنو يعقوب قد اقتربت من المِدْيَنِيّين ، فهتف بهم هؤلاء وباعوا لهم[1] يُوسيف بالثّمن ذاته الذي كانوا دفعوه فيه ، وهم فرحون بالخلاص من الهمّ النّازل بهم . فجعل اليشْمَعيليّون يُوسيف على بعض أباعرهم وحملوه معهم إلى مصر . وبكى يُوسيف بحُرقة أثناء الرّحلة لما أدركه بأن كلّ خطوة تنأى به بعيداً عن دار أبيه ، وتُوصد دونه بإحكام كل باب للأمل . وضاق اليشْمَعيليّون ذَرعاً بشهيقه ونحيبه المستمرّين ، فأغلظوا له القول والمعاملة .

وفي دربهم مرّوا بالمكان الذي دُفنت فيه راحيل أم يُوسيف . وتعرّف يُوسيف على المكان ، فألقى بنفسه على قبر أمه وأطلق لروحه المُعنّاة لواعج الأسى فبكى قائلاً : «أُمّاه ، يا أُمّاه ، قُومي من لحدكِ فانظري بُنَيَّكِ ! قد بيعَ عبداً ، وما من عين تنظر إليه بالرّأفة . قومي فانظري بُنَيَّكِ وابْكِ معه على بلوائه ومحنته ! أفيقي من رُقادكِ ، وكُفّي إخوتي عنّي ! قد جرّدوا عني قميصي وفي ربقة العبودية طرحوني ، ومرّتين أُخِذتُ بالبيع ، ففُرّق بيني وبين أبي ، وعن كلّ قلب رحيم وعين رئيفة أُقصيتُ . قومي يا أُمّاه ، وادعي إلهك ! ولتري يا أُمّاه مَن يُنصف الله الأزلي ومَن يُدين ! هُبّي من رُقادكِ ، فعليكِ بأبي ولتُسَكّني من لوعته وأساه ، وترفّقي له بكلام السّلوى وبشائر الخير ، لعلّ قلبه يعود فيحيا . هلُمّي قُومي يا أُمّاه وانظري إلى بُنَيّكِ !»[2] .

---

(1) نعمد إلى استخدام التعابير الشائعة في لغة اليوم الفصحى ، بدلاً من : باعوه منهم ، عملاً بقاعدة : خطأ مشهور خيرٌ من صواب مهجور . وهذا لا يعني أننا نجهل المعياريّة في لغتنا الفصحى .

(2) هذا المقطع كلّه غير وارد في التّوراه ، وينفرد به نصّ التّلمود .

فدافع اليشْمَعيليّون يُوسيف عن قبر أمّه باللّطم والصّياح . فقال لهم يُوسيف : «هَبوني حُظوةً في أعينكم ، خُذوني إلى بيت أبي فيُغنِكم» . فهزؤوا به وقالوا : «ألستَ عبداً ؟ فمن هو أبوك ؟ ها أنتَ قد أُبعتَ مرّتين ، فإن أنتَ إلا عبد ، وبِئس العبدُ الآبق ، فلو كنتَ ذا شأن لما تم بيعك مرّتين» .

فانتحب يُوسيف ونصل عُوده واعترته الأسقام ، فقال أسياده : «ما تُرى هذا الصبي إلا هالكاً بين أيدينا ، فيضيع المال الذي دفعناه فيه . إن كان يرغب بالعودة إلى بيت أبيه فلنردّه إليه ، لعلّنا نستعيد المال الذي دفعناه فيه» . لكن بعضهم الآخر قال : «بِئس الرّأي ، فالمسافة قصيّة وإن عُدنا الآن تباعَد بيننا وبين منازلنا . لنأخذنّ الفتى إلى مصر ، وبمقدورنا أن نبيعه هناك ، وبثمن بالغ» . فوقع هذا الرأي موقع القبول لدى أغلبيّة القافلة ، وحملوا يُوسيف معهم إلى مصر .

أما بنو يعقوب فلمّا باعوا أخاهم أنّبهم ضميرهم ، وتمنّوا استرداده شراءً ، ولكن على اعتبار مبيعه الثاني أخفقوا في العثور عليه . وبينما كانوا يفتّشون عنه عاد رَوبين إلى البئر الذي طُرح فيه يُوسيف ، بُغية أن يخلّصه ، فوقف عند حافّة البئر ، لكنه لم يسمع صوتاً ، فصاح : «يا يُوسيف ، يا يُوسيف !» ، لكنه لم ينل جواباً إلا الصّمت . فارتاع رَوبين ، وظنّ أن يُوسيف قد مات من الخوف ، فنزل إلى البئر ، آملاً أن يكون جسده لم يفارق الحياة تماماً . ولمّا ألفى البئر خاوياً مزّق ثيابه وصاح[1] : «كيف أمضي الآن إلى أبي ؟! كيف لي أن أنظر في وجهه ويُوسيف قد مات ؟!» .

ورجع مُسارعاً إلى إخوته ، فألفاهم يتشاورون حول كيف يخبرون أباهم بفَقد يُوسيف . فعنّف رَوبين إخوته وقال لهم : «بِئسَ ما صنعتُم ، ستُودون بأبيكم الشيخ إلى التّهلُكة» . واتّفق الإخوة على إبقاء مصير يُوسيف سراً بينهم ، وعملوا بمشورة يِساكَر ، فأخذوا قميص يُوسيف وخَرّقوه في مواضع عدّة ، وذبحوا جَدياً من المَعز وغَمَسوا القميص في دمه ، ثم عفّروه بالتّراب .

---

(1) عودة هنا إلى تقابل النصّ مع فحوى التّوراه (تكوين - 37 : 29-30) .

وبَعَثوا بالقميص على يد نَفتالي فأنفذوه إلى أبيهم ، وكلّفوه أن يسلّمه له قائلاً : «ها نحنُ جمعنا مواشينا فتوجّهنا إلى درب شِكيم ، وهذا القميص وجدناه في طريقنا بالبريّة ممزّقاً ومُلطّخاً بالدّم ومعفّراً بالتّراب . فنلتمس منك أن تفحصه وأن تُثبته ، أقميصُ ابنك هو أم لا ؟» .

فأثبت يعقوب قميص يُوسيف على الفور ، وسقط بوجهه إلى الأرض ، ولبث بلا حراك مدّة طويلة ، ثم قام ينتحب بملء صوته : «قميصُ ابني هو» . وبنواحي العشيّة أرسل يدعو أبناءه ، فوجدهم الرّسول بثياب ممزّقة وقد حثَوا التّراب على رؤوسهم . فلمّا جاؤوا البيت آلمت قلوبهم لوعات أبيهم المريرة ، لكن إذ أنّبهم ضميرهم جعلوا يُنكرون رؤية يُوسيف ، وأعادوا على أسماعه قصّة عثورهم على القميص .

واسترسل يعقوب في نُواح شديد ، ومكث ووجهه إلى الأرض . فرفع يهوداه رأس أبيه ومسح من عينيه الدّموع ، غير أن يعقوب أبى السّلوى عمّا هو فيه ، وقال : «وَحشٌ ضارٍ افترس يُوسيف ، سوف لن أراه أبداً بعد اليوم» . وناح على يُوسيف سنين كثيرة .

وحمل اليشْمَعيليّون يُوسيف إلى مصر ، فلمّا قاربوا مشارفها صادفوا أربعة رجال من نسل مِدان מדן ، وهو ابن أبرَهام وقِطُورَاه קטורה ، فقالوا لهم : «أتشترون منّا هذا العبد ؟» ، فرأى الرّجال يُوسيف فتىً وسيماً طَلق المُحيّا ، فاشتروه من اليشْمَعيليين بتسعة شواقل وحملوه إلى مصر . ثم قال المِدانيّون : «هو ذا فُوطيْفَر פוטיפר وزير فَرْعُوه פרעה [فرعون] رئيس حرسه[1] يبتغي شراء عبد فتيّ أمين ونجيب ليقوم بأمور بيته . فلنحاول بيع هذا الفتى له» .

فحمل المِدانيّون يُوسيف إلى فُوطيْفَر ، فأعجب هذا الأخير بشكل يُوسيف ومواصفاته ، وسألهم : «كم ثمنه ؟» ، قال المدانيّون : «أربع قطع من الفضّة» . قال فوطيفَر : «أشتريه إذاً ، شريطة أن تأتوني بالرّجل الذي ابتعتوه منه . فهو لا يبدو عليه سيماء العبيد ، وأخشى أن يكون مسروقاً من بلاده ومن بيته» .

---

(1) سفر التكوين (39 : 1) : סריס פרעה שר הטבחים : خصيّ فَرْعُوه رئيس الحرس .

فأحضر المدانيّون اليشْمَعيليين الذين منهم ابتاعوا يُوسيف ، واقتنع فوطيفَر بروايتهم للصّورة التي حازوا بها مُلكيّة الفتى ، فدفع القطع الأربع من الفضّة ، واشترى يُوسيف عبداً له .

ووجد يُوسيف نعمةً في عيني فوطيفَر ، فكُلّف بقوامة بيته وممتلكاته كلّها . وكان الرّبّ مع يُوسيف ، ومن أجله بارك فوطيفَار وأهل بيته جميعاً . وعند ذلك كان يُوسيف في حوالي الثامنة عشرة من العمر ، وكان فتىً حَسَن الهيئة وجميل المنظر لا نظير لحُسنه في أرض مصر . فلمّا كان مُلزَماً من خلال واجباته بالتنقّل في أركان بيت سيّده جميعها بحريّة تامّة ، لَفَتَ أنظار زِليْخاه זליחה امرأة فُوطيْفَر . فافتُتنت المرأة بمحاسن جسده وجمال وجهه ، وراحت تبوح له يوماً بعد يوم بحبّها له وترجوه أن يُبادلها ما تكنّه له من شعور . فأحجم يُوسيف عن الاستماع إليها ، وجهد أن يجنّب نفسه هذا الاهتمام منها . ولمّا قالت له : «ما أجملك من فتىً ، إنه لا نظير لحُسنك في هذه الدّنيا» ، أجاب : «مَن خلَقني خلَق العالمين أجمع» . ولمّا تغزّلت بملاحة عينيه أجاب : «وبِمَ تراهما ينفعانني إذا صرتُ إلى رمسي وخَبَا فيهما النّور والحركة ؟» .

فلمّا ألفت زليخاه يُوسيف غير آبهٍ ولا مُكترث بكلامها المعسول ولا يُذعن إلى تدنيس بيت سيّده ، راحت تهدّده بالموت والسّجن إن هو تمادى في تمنّعه ، لكن يُوسيف ردّ ذلك بقوله : «مَن خَلَقَ الإنسان يفكّ قيد المأسور ، وهو الذي يُنجيني من عقابك» .

وكانت صاحباتها اللواتي يزُرنها يأخذهنّ الإعجاب أيضاً بيُوسيف ، ويُطرين حُسنه . وفي إحدى المرّات لمّا وُضعت الفواكه أمام الزّائرات ، راحت إحداهنّ تقشّر فاكهةً فجرحت إصبعها دون أن تشعر بما جرى ، إلى أن لفت نظرها تقاطر الدّم على ثوبها ، إذ كانت عيناها زائغتين بيُوسيف ، وخيالها مأخوذاً برونق حُسنه وبهائه[1] .

---

(1) هذه الحكاية لا ترد في التّوراه ، إنما هي أيضاً مثال على الحواشي التفسيرية الأجَدائيّة (من الأجَداه) الواردة في التّلمود . وهنا ننبّه إلى أهميّة تتبع قصص الأنبياء الواردة في سفري تُوراه ونبيئيم على ما يُكملها في التراث الشفوي التّلمودي ، استكمالاً للرّواية .

ومَضَت الأيام ، ورغم إلحاح زليخاه استمرّ يُوسيف مُعرضاً عـن غوايتها . وحدث أنه في وقت وفاء النّيل خرج أهل مصر جميعاً من بيوتهم ، بما فيهم الملك والأمراء والشعب بأسره ، للفرجة على وفاء النّيل وللاحتفال بالعُطلة تكريماً له . فمثل غيرهم من أفراد الشّعب ، خرج أهل بيت فُوطيْفَر أيضاً ، ما خلا يُوسيف الذي مكث حارساً لممتلكات سيّده ، بالإضافة إلى زليخاه التي مكثت بنيّة الانفراد بيُوسيف .

لبست زليخاه أفخر أثوابها ، وراحت تُغوي يُوسيف بتحرُّق أكثر من ذي قبل ، فلكي يُفلت من أهوائها استدار وانسلّ على حين غرّة من بين يديها . فلمّا فعل ذلك أمسكت بثوبه لتُبقيه أمامها ، فانشطر الثّوب وبقيت منه قطعة في يدها . فلمّا أبصرتها ، ووَقَرَ في مُخيّلتها مقدار المذلّة التي قُوبلت بها ، حلّ في قلبها كُره عظيم ، كما أنها خافت أن ينمي خبر القصّة إلى زوجها . فسارعت إلى استبدال ثوبها الفخم بلباسها المعتاد ، ونادت بفتىً ليُحضر رجال البيت . فلمّا وصلوا لاقتهم بالصّياح والنّواح ، وقصّت عليهم حكايةً عن وقاحة يُوسيف ، فنسبت إليه باطلاً فِرية التحرّش والمُراودة عن النّفس ، ممّا صدر عنها هي في الواقع ، وزادت على ذلك تُهمة الإرغام بالقوّة ، فقالت : «أمسكتُ بثيابه ورفعتُ صوتي وصرختُ ، فخاف وانهزم عنّي ، فبقيت هذه المِزقة من ثيابه بيدي» .

فروى الرّجال هذه الافتراءات لفُوطيفَر ، فأتى بيته يقدُمه شرّ مستطير تلقاء يُوسيف ، وأمر على الفور بجلد الفتى بقوّة . وأثناء إيقاع هذه العقوبة به ، بكى يُوسيف بقوّة ، ورفع رأسه إلى السّماء متضرّعاً : «تعلم يا الله علم اليقين أنني بريء من هذه الادّعاءات كلّها ، فكيف أُقتل الان زوراً وبُهتاناً ؟» .

وقدّم فُوطيْفَر يُوسيف أمام القُضاة ، فادّعى عليه قائلاً : «هذا العبد فعل كذا وكذا» . فاستنطق القُضاة يُوسيف ، فأدلى بروايته عن الحادثة قائلاً : «لم يكن الأمر هكذا ، إنما حصل كذا وكذا» . فأمر القُضاة عندها بجلب الثّوب الممزّق إليهم ، ولدى فحصه حكموا ببراءة يُوسيف . لكنهم مع ذلك أشخصوه إلى السّجن ، درءاً من مغبّة التّشهير بامرأة شخص من مستوى فُوطيْفَر .

وأُودع يُوسيف السّجن اثنتي عشرة سنة مديدة ، وفي خلال هذه المدّة زارته زليخاه ، فوعدته أن تردّ إليه حرّيته وكرامته إن هو نزل عند رغباتها . لكنه رفض بثبات ، إلى أن كفّت أخيراً عن وطرها . وفي حين كان يُوسيف محبوساً على هذا الشكل ، محروماً من حرّيته ، كان أبوه يعقوب في أرض كنعان ينوح عليه نواح أب فرّقه الموت عن ابنه الحبيب .

* * *

وحدث في ذلك الحين أن فَرْعُوه [فرعون] أقام عيداً لوزراء مملكته وأمرائه[1] ، وكان رئيس السُّقاة ورئيس الخبّازين قائمَين على خدمة المدعوّين . فوجد الأمراء في الخبز نُحاتة حجر الطحن ، ولقي أحدهم في الخَمْرَة[2] ذُبابةً . فسخط فَرْعُوه لذلك سخطاً شديداً ، وأمر بالاثنين إلى السّجن ، فمكثا فيه حَولاً كاملاً .

ثم وُلد لفَرْعُوه ابن ، وكان بكراً له ، فعمّت الفرحة البلد . ولمّا كان الطفل في يومه الثالث أمر فَرْعُوه بإقامة مأدبة هائلة ، وأمر بإخراج رئيس السُّقاة لحضورها . لكن السّاقي نسي وعده ليُوسيف بأن يذكُره إن ردّه فَرْعوه إلى مكانته كما عبّر له ، فكان أن مكث في سجنه عامين آخرين .

في ذلك الحين ، كان يصحاق بن أبرَهام ما زال مُقيماً في أرض كنعان ، وعمره مئة وثمانية أعوام . وكان عيْسَو ابنه مُقيماً في إدوم . فلما علم عيْسَو أن أباه قد هرم وضعف بدنه ، وبأن أيّامه على الأرض باتت معدودة ، رحل إلى كنعان إلى بيت أبيه ، هو وأهل بيته بأكملهم . وكذلك رحل إلى هناك يعقوب وأبناؤه من حِبْرُون ، وكان يعقوب ما يزال نائحاً على يُوسيف الفقيد .

---

(1) قابل على التّوراه : تكوين - الأصحاح 40 .

(2) الخَمْرَة كلمة آرامية : חמרא حَمرا ، معناها : الحمراء كما يدل مبناها ومعناها ، دخلت العبْرية بنُطق الحاء خاءً - والخاء في العبْرية أصلها كاف أو حاء - فسُمّي بها النّبيذ من باب التكنية عن لونه . بينما في قواميس العربية راج تفسير مصدرها من الخِمار أي الغطاء ، بمعنى أنها تحجب العقل ، فأيهما يلوح أقرب إلى تلقائية المنطق وبداهة المعنى ؟ يتفق فُقهاء اللغة على أن تسمية الأشياء والآلات والأماكن لا تنجم عادةً عن قصة مطوّلة ذات أركان وحواش ، بل عن معنى أو وصف بسيط تلقائي لا تعقيد فيه .

وقال يصحاق ليعقوب : «أدْنِ أبناءَك منّي كـي أبـاركَهم» . فـأدنى يعقـوب أبناءه الأحـد عشـر وابنته الوحيـدة إلـى جـانب أبيـه . ووضـع يصحـاق يـده علـى رؤوس بني يعقوب واعتنقهم واحداً إثر الآخر ، قائلاً لهم : «إله أبيكـم مُبـاركُكم ونسلكم يُكثّره بعدد نجوم السّماء» .

وبارك يصحاق أيضاً أبناء عيْسَو قائلاً : «مهابتكُم تحلّ في قلوب أعدائكم ، ويـملأ إلهكـم قلوبهـم رُعبـاً» . ثـم دعـا يصحـاق بهـم أجمـع ، أبنـاءً وأحفـاداً ، وخاطبهم ، موجهاً كلامه بالخصوص إلى يعقوب : «إن الربّ إلـه الكـون كلّمني فقال : «لنسلك أعطي هذه البلاد ليملكوها ، إن التزم أبنـاؤك شـريعتي وطُرُقي . وأقيم العهد الذي قطعتُه لأبيـك أبرَهـام» . والآن يـا بُنـيّ ، فلتعلّـم أبنـاءك وأبنـاء أبنائك مخافة الربّ وأن يسلكوا الطريق الذي يرضيه ويحسُن في عينيه . لأنكم إن ثابرتم علـى شـريعته سـوف يُعطيكـم العهـد الـذي بذلـه لأبرَهـام ، ويجتبيكـم أنتـم ونسلكم إلى أبد الدّهر» .

ثم مات يصحاق ، فبكي يعقوب وعيْسَو معاً لوفاته . وحمـلا جثمانه إلى مغارة مَكفِلاه מערת המכפלה التي في حِبْرُون ، وانضمّ ملوك كنعان جميعهم إلى وفود النائحين في جنازة يصحاق . فدُفن بتشريف كبير ، كما لـو أنـه كـان مـن الملوك . وناح عليه أبناؤه اثني عشر شهراً ، بينمـا أقـام ملـوك كنعـان عليـه الحُـزن ثلاثين يوماً .

وكان يصحاق قد أوصى بحلاله ومُمتلكاتـه كلّهـا إلـى ابنيـه . فقـال عيْسَـو ليعقوب : «ها هو ما تركه ما تركه لنا أبونا ، وينبغي أن نقتسمه حصّتين ، وسـوف أنتقي حصّتي» . فقَسَمَ يعقـوب ممتلكـات أبيـه كلّهـا إلـى حصّتين بحضـور عيْسَـو وأبنائه ، ثم خاطب أخاه قائلاً : «خُذ لنفسك الحصّتين اللتين تراهمـا أمـامك . إذ أن إله السّماء والأرض كلّـم كـلاً مـن والدينـا أبرَهـام ويصحـاق قـائلاً : «لنسـلك أعطي هذه الأرض ميراثاً أبديّـاً» . والآن فكـلّ مـا خلّفـه أبونـا هـو أمـامك ، فـإن رغبتَ بالمُلك الموعود - أي أرض كنعان - فخُذه ، ويكون هذا الميراث الآخـر مـن نصيبي . أو إن شئتَ هاتين الحصّتين ، فليكن لك كما يحسُن في عينيك ، وتكـون أرض كنعان حصّتي ومُلكاً لي» .

فقبل أن يجيب عيْسَو ويقوم بالاختيار ، قصد نِبايوت נבית بن يِشْمَعيل ، الذي كان في تلك الدّيار آنذاك ، وطلب منه الرّأي في ما يختار . فأجابه نِبايوت : «ها هم الكنعانيّون الآن مقيمون في البلاد بسلام وأمان ، فهي في الوقت الحاضر مُلك لهم . دَع يعقوب يظنّ نفسه وارثها يوماً ، ولتأخذ أنت تركة أبيك وثروته الشخصيّة» .

فاتّبع عيْسَو هذه النّصيحة ، وإذ أخذ الممتلكات الشخصيّة أعطى ليعقوب حصّته أرض كنعان من نهر مصر إلى النّهر الكبير نهر الفُرات ، وكذلك مغارة مَكفلاه في حِبْرُون ، التي اشتراها أبرَهام من عِفْرُون بن صُحَر עפרון בן־צחר [1] للدّفن . فأخذها يعقوب لتكون مدفناً له ولنسله إلى الأبد . فحرّر يعقوب صكّاً ودوّن فيه تفاصيل العَقد جميعها ، وتمّ توقيع الشّهود عليه وخَتمه . وهذا هو نصّ الصّك :

«أرض كنعان وجميع المُدُن التي تضمّ : الحِتّيين ، والحويّين ، واليَبُوسيين ، والأموريّين ، والفِرِزّيّين ، والأمم السّبع جميعها ، من نهر مصر إلى نهر الفُرات . وكذلك مدينة حِبْرون ، التي هي قريَة أرْبَع קריית ארבע ، والمغارة التي بها . وهذا ما اشتراه يعقوب بالمال من أخيه عيْسَو ، مُلكاً له يؤرّثه من بعده لأبنائه وأحفادهم إلى الأبد» .

وأودع يعقوب هذا الصّكّ حُقّاً من فخّار لكي يبقى محفوظاً ، ووضعه في يد أبنائه بمثابة حُجّة لهم .

فأخذ عيْسَو كل ما خلّفه أبوه ، ورحل عن أخيه يعقوب ، كما هو مكتوب في التّوراه : «وأخذ عيْسَو نساءه وبَنيه وبناته وكلّ نفس في بيته ، وماشيته وكل بهائمه وسائر مُقتناه الذي اقتنى في أرض كنعان ، وانتقل إلى أرض أخرى من وجه يعقوب أخيه» (تكوين – 36 : 6) . ورحل بكل مُقتناه إلى أرض سعير שעיר فلم يرجع مُطلقاً إلى أرض كنعان ، التي غَدَت ميراثاً أبدياً ليسْرَئيل .

* * *

(1) انظر التّوراه : تكوين – 23 : 8–9 .

ثم إن الذي كان من أمر فَرْعُوه [فرعون] أنه أصدر بلاغاً عبر أرض مصر كلّها لجميع ما فيها من حُكماء . ودعاهم للمثول بين يديه ، والاستماع إلى الحلم الذي أزعجه . فقال : «مَن أمكنه أن يعبّر لي معنى هذه الرّؤيا بشكل صحيح أعطيتُه كلّ ما تشتهي نفسه ، كائناً ما كان . أمّا مَن كان يقدر على تعبير الأحلام ولا يُطابق أوامري ، أمرتُ به فيُعدم بلا مُراجعة» .

فأتى كل مَن في أرض مصر من حُكماء وعرّافين وسَحَرة ، ووقفوا بين يدي الملك . فروى لهم الملك حُلمه ، وبرغم كثرة التعبيرات التي طُرحت لم يتّفق منها اثنان قَطّ على معنى واحد . وراح بعضهم يُناقض الآخر ، فلم يزيدوا الملك إلا حيرة على حيرة . وتعدّدت التعبيرات للغاية ، فمنهم مَن قال : «البقرات السّبع السِّمان سبعة مُلوك يحكمون عرش مصر من نسل الملوك ، والبقرات السّبع العجاف سبعة أمراء يُولدون لهم ، ثم في عاقبة الأمر يُهلكون الملوك السّبعة . أما السّنابل السّبع الجياد فهي سبعة أمراء عظام من هذه البلاد ، يقعون في الأيام التالية بالحرب في أسر سبعة أمراء ، هم الآن ضعاف ولا يُؤبَه لهم» .

فيما قال آخر : «بل البقرات السّبع السِّمان هنّ سبع ملكات سوف تتزوّجهنّ في الأيام التالية ، والبقرات السّبع العجاف تدلّ على أن أولئك الملكات سوف يمُتن خلال مدّة حُكمك أيّها الملك ! أما السّنابل السّبع الجياد والسّبع الدِّقاق فهنّ أربعة عشر ابناً سيولدون لك ، وسوف يقتتلون فيهزم السّبعة الضعاف إخوانهم السّبعة الأقوياء» .

غير أن الملك لم ترُق له هذه التّفاسير كلّها ، وأقام كاسفاً مضطرب البال ، لأن الرّبّ قدّر ليوسف أن يتمّ إطلاق سراحه من السّجن وأن يرتقي إلى منصب رفيع . ولهذا الشأن بقي فَرْعُوه غير راضٍ بكلام حكمائه .

وازداد حنق الملك ، فصرف الحكماء من حضرته ، وخرج من أمامه جميع حكماء مصر وعرّافيها وسَحَرَتها يُجرجرون أذيال الخيبة . وأمر الملك في فورة غضبه بهؤلاء جميعاً أن يُقتلوا . فلمّا سمع بذلك رئيس السُّقاة التمس المثول بين يدي الملك ، وتكلّم أمامه بعين الخضوع قائلاً :

«أيها الملك فلتعش إلى الأبد ! وليدُم عزّك أيها الملك على البلاد كلّها دائماً وأبداً ! كُنتَ مرّة غاضباً على خادمك ، فأمرتَ بحبسه ، سنةً كاملة أمضيتُها في السّجن ، أنا ورئيس الخبّازين . وكان معنا هناك في زنزانتنا خادم عِبْري يتبع بيت رئيس الحرس . كان اسمه يُوسيف ، وإذ غضب عليه سيّده أودعه السّجن ، حيث راح يخدم رئيس الحرس ويخدمنا أيضاً .

«وحدث لمّا كنّا نمضي هذه السّنة في السّجن أننا رأينا كلّ منّا حُلماً ، فعبرّ لنا العبد العِبْري لكل واحد منا حسب حُلمه . فكان كما عبّر لنا الحلمين وكما تكلّم جرى ووقع في الحقيقة .

«لذلك يا سيدي الملك ، أرجوك ألا تقتل حكماء مصر سُدىً . وها هو العبد ما برح في السّجن ، فإن حَسُن في عينيّ الملك فليُستدعى إليه . وليستمع إلى الأحلام التي أرّقت بال الملك ، وإنّه لقادر على تعبيرها بوجه الصّواب» .

اعتبر الملك بكلام رئيس السُّقاة ، فأمر بإحضار يُوسيف إليه . لكنه أكّد على مُقدّميه وجوب الانتباه إلى عدم إفزاع الفتى ، مخافة أن يحول الخوف بينه وبين تعبير الحُلم بشكل صحيح . فذهب خدم الملك وأحضروا يُوسيف من زنزانته ، واحتَلق وأبدلوه ثياباً جديدة وأخذوه للمُثُول بين يدي الملك . وكان الملك يجلس على عرشه ، فدُهش يُوسيف وانبهر بمرأى الجواهر التي تزيّن عرشه إذ راحت تبرق وتلتمع .

وكان يؤدّي إلى عرش الملك سبع درجات ، وكان العُرف في مصر أنه إن مَثُل أمير أو واحد من الأعيان بين يدي الملك ، أن يصعد إلى الدّرجة السادسة . وأما إن طُلب رجلٌ أدنى أو مواطن عادي من الأهلين للمُثول أمامه ، ينزل الملك إلى الدّرجة الثالثة ويخاطبه منها . ولهذا لمّا جُلب يُوسيف إلى حضرة الملك ركع إلى الأرض عند أدنى العرش ، فنزل الملك إلى الدّرجة الثالثة وكلّمه فقال :

«إنني قد رأيتُ حُلماً ، ومن بين حكماء البلد وسَحَرَته لم يكن ثَمّة مَن يعبّره لي . وقد سمعتُ عنك أنّك واسع البصيرة وتنعُم بمزايا ربّانيّة ، فأرسلتُ في طلبك كيما تُعبّر لي حُلمي» .

فقال يُوسيف : «أيها الملك ، لا بعلمي وقوّتي ، بل الله يُجيب ويُعطي فَرْعُوه السّلام» . ووجد يُوسيف حُظوة في عيني الملك ، وأنبأه بتعبير حُلمه . وكانت رُوح الله مع يُوسيف ، فراح الملك يُصغي بكامل جوارحه ونفسه إلى كلام يُوسيف .

فقال يُوسيف لفَرْعُوه : «لا يبدُرنّ في ظنّ الملك أن حُلميه اثنان منفصلان ومختلفان ، بل إنهما يُنبئان عن نذير واحد ، وما ينوي الرّبّ فعله بالأرض إنما يُكاشِف به فَرْعُوه في رؤياه . فاسمح لي أن أفيدك أيّها الملك حول الطريقة التي تُنجي بها حياتك وحياة سكّان بلادك بأسرهم من شرور المجاعة الرّهيبة التي ستحلّ قريباً فتُنضب البلاد وتُتلف خصوبتها . فلينظر الملك رجلاً حكيماً فهيماً يُقيمه على البلاد ، يكون عارفاً بشؤونها ، وليُعيّن هذا دونه وكلاء فيذرعون طول البلاد وعرضها لجمع الطعام في سنيّ الخير ، ويخزّنونه بعناية للسنين القادمة ، فلا تنقرض البلاد في سنيّ المجاعة التي تأتي . وليشرّع الملك لأهل البلاد بأن على كل واحد فيهم أن يجمع من نتاج الأرض ويخزّنه في سني الخير ، لكي يكون ذخيرةً له عندما تنضُب الزّروع وتُمحل الأرض» .

فأجاب الملك : «وكيف جزمتَ أن تعبيرك للحُلم صحيح ؟» ، فأجاب يُوسيف : «ثمّة علامة على صدق كلامي . سيُولد للملك ابن ، وفي يوم ولادته يموت ابنك البكر ، الذي عمره الآن سنتان» . وعُقب أن أتمّ يُوسيف خطابه ، ركع للملك وانصرف من حضرته .

وحدث أن الواقعة التي تنبّأ بها يُوسيف جرت بالفعل . فلقد ولدت الملكة ابناً ، وفي اليوم الذي حُملت به البشارة إلى الملك أصابه سرور بالغ . ولكن ما إن خرج البشير بها ، حتى ألفى خُدّام الملك ابنه البكر ميتاً ، وكان هناك بكاء وعويل عظيمين في قصر الملك . فلمّا سأل الملك عن سبب البكاء والصّياح قيل له عن الفاجعة ، فتذكّر كلام يُوسيف وأقرّ به مصدّقاً ما فيه[1] .

---

(1) هذه الرّواية عن صدق يوسيف وموت ابن فرعون البكر ليست في التّوراه ، بل ينفرد بها التّلمود . راجع نصّ التّوراه : تكوين – الأصحاح 41 . وهذا مثال آخر على الحواشي التفسيرية ، لكننا في القسم الثاني من كتابنا سنشرح آلية هذه الحواشي أكثر .

بعد هذه الأمر دعا الملك بأمرائه ومُقدّميه وأعيان دولته وجمعهم بأسرهم ، فلمّا مثلوا بين يديه قال لهم : «قد شهدتُم وسمعتُم مقالة هذا الفتى العِبْري ، وتعلمون أنّه كما تكلّم قد جرت الأحداث . لذلك فعلينا أن نصدّق بأن تعبيره لحُلمي هو الصّحيح ، وبأن نصائحه ذات شأن واعتبار بالغين . ينبغي لنا أن نتأهّب استعداداً لهذه المجاعة التي ستحلّ بنا لا محالة . لذلك فإني أطلب إليكم أن تلتمسوا لنا عبر مصر كلّها رجلاً ذا حكمة ومعرفة في قلبه ، لنُقيمه حاكماً على البلاد» .

فأجابوا الملك : «إن نصائح العِبْري قيّمة للغاية ، فطالما أن البلاد في يد الملك يفعل بها ما يحسُن في عينيه ، وطالما أن العِبْري أثبت حكمته وحُذقه ، فلمَ لا يختاره مولانا الملك ويُقيمه حاكماً للبلاد ؟» . فقال الملك : «نعم ، بالفعل . إن كان الله أعطى علم هذه الأمور للعِبْري ، فإذاً ليس فينا مَن هو أكثر حكمةً وفهماً منه . فما اقترحتموه يوافق ما يجول بفكري . سنعيّن العِبْري حاكماً لنا ، ومن خلال حكمته سوف تنجو بلادنا من مخاطر العَوز والفاقة» .

فأرسل فَرْعُوه في طلب يُوسيف ، وقال له : «قد نصحتَني أن أعيّن رجلاً حكيماً فهيماً ليجنّب البلاد مغبّة المجاعة . ولا ريب أنه ليس فهيمٌ حكيمٌ مثلك بعدما عرّفك الله هذه الأشياء كلّها . واسمك لا يكون بعدُ يُوسيف ، بل يكون «صافِنَتْ فَعْنِيَح» צפנת פענח (كاشف الخفايا)[1] ، وبه تُدعى بين النّاس . ولا يكون أعلى منك يداً في المملكة غيري أنا فَرْعُوه ، وبحسب كلماتك تجري أحكام مصر . ولا يكون فيها أعلى منك إلاّي بعرشي هذا» .

(1) انظر التُّوراه : تكوين – 41 : 45 . أما في الترجمات العربية للتُّوراه عن الترجمة السّبعينية العتيدة ، فترد العبارة : «مُخلّص العالم» في الترجمة الكاثوليكية ، أما في البروتستانتية : «صَفْنَات فَعْنِيحَ» ، مما دلّ على جهل التراجمة المطلق باللسان العِبْري ، إذ حركوا الحاء في الكلمة الثانية بالفتحة ومن قبلها ياء ساكنة . أما القاعدة العِبْرية في هذه الحالة (برغم إثبات البَتاح فعلاً على الحيت) أن الحاء الأخيرة المحرّكة بپَتاح ويسبقها حرف يُود أو حركة صيري تُلفظ : ـيَحْ ، ككلمة : مفْتِيَح . ويتماثل مع ذلك قاعدة اسم نُوَح أعلاه . والتسمية العِبْرية المذكورة تُلفظ بالإشكنازيّة : «تْسافِينت پانيّخ» . وفي العِبرية : צפן يعني : أخفى ، خبّأ ، ستر . أما פענח فيعني : حلّ ، فسّر ، فكّ المغاليق .

ثم خلع الملك خاتمه من إصبعه وجعله في يد يُوسيف ، وألبسه حُلّة ملكيّة وجعل على رأسه تاجاً وطوّق عنقه بسلسلة ذهبيّة . وأمر فَرْعُوه بإركاب يُوسيف في مركبته الثانية في أرض مصر بأجمعها . وتبعه الرّجال بالعزف والنّداء ، وكان يمضي وبصحبته حاشية كبيرة . فكان يقدُمه خمسة آلاف جندي وبأيديهم سيوف مسلولة تلتمع في نور الشّمس ، ثم يتبعه عشرون ألفاً . وكان أهل البلاد ، رجالاً ونساءً وولداناً ، يتفرّجون على الموكب من النّوافذ وأسطحة البيوت ، وحاز حُسن يُوسيف إعجاب عيون النّاظرين .

وكانت الزّهور تُنثر في طريقه حين يمشي ، ويُعطَّر الجو بالأطياب وعَبَق البَلْسَم والبُخور . وكان يُعلَن ببيانات عن سُلطة يُوسيف في الأماكن البارزة ، ويُهدّد بالموت مَن لا يبذل أمامه فروض الطاعة . لأنّه كان يُعدّ من ضروب الإهانة للملك عدم تكريم نائبه الذي أقامه على مملكته . فكان النّاس يركعون أمامه ويصيحون : «عاش الملك ونائبه !» . أما يُوسيف ، فلمّا تربّع في عربته الملكيّة ، رفع طَرفه إلى السّماء وقال من أعماق قلبه : «هو الله يرفع الفقير من التّراب ، ومن الحَمأة يرفع المحتاج . يا ربّ الجيوش[1] אדני צבאות ، قد أفلح مَن آمن بك واتّكل عليك»[2] .

* * *

(1) اسم الله يرد في التّوراة أيضاً بأشكال مغايرة ، سنبحثها في القسم الثاني من كتابنا . ومراراً ترد عبارة : إله الجيوش «إلوهيم صبؤوت» ، كما في مزامير داود (59 : 6) : «وأنت ياربّ إله الجيوش إله يسرئيل» : ואתה יהוה-אלהים צבאות אלהי ישראל .

(2) هاتان الفقرتان الأخيرتان أكثرهما ليس في التّوراة .

الفصل الخامس
مَجد يُوسيف ودخول يعقوب إلى مصر

وحدث من بعد ذلك أن يُوسيف رأى أسنات אסנת بنت فُوطي فِرَع[1] פוטי פרע ، فكانت كدُرّة بين جميلات البلد ، فأحبّها واتّخذها زوجةً له . ولم يكن يُوسيف تجاوز الثلاثين من عمره عندما تولّى هذا المنصب الرّفيع الكبير الشأن . وابتنى لنفسه قصراً نفيساً تام المواصفات والمُلحقات ، فجاء على غاية الإتقان لدرجة أن ثلاث سنوات من الزّمن لزمت لإنجازه . وكان الرّبّ مع يُوسيف وضاعف حكمته وفَهمه ، وباركه بطباع دمثة ونبيلة فسرعان ما كسب قلوب أبناء البلاد ومحبّتهم .

وخلال سبعة أعوام ، كما كان تنبّأ يُوسيف ، ضاعف الرّبّ غلال مصر سبع مرّات . فعيّن يُوسيف مُقدّمين لجمع الوفر . وبنوا أهراءً ضخماً كوّموا فيها القمح خلال سبع سنوات الخير ، حتى بلغت الكمّيات المخزونة حَدّاً لم يعد بالإمكان إحصاؤه . وثابر يُوسيف ومقدّموه على الانتباه لدرء أهراء الحبوب عن آفتي العثّ والعَفَن . وكذلك راح أهالي البلاد أيضاً يخزّنون الفائض من محاصيلهم ، لكنهم ما كانوا حريصين عليه ونابهين كفاية كما كان يُوسيف ومعاونوه .

أما امرأة يُوسيف فولدت له ابنين : مَنَشّيه מנשה وإفرايِم אפרים ، فعلّمهما أبوهما مُثابراً طريق الحق[2] . فاستمعا إلى كلامه ولم يحيدا عن طرق التّهذيب إلى اليمين أو إلى اليسار . وشبّا فصارا فتيّين لامعين نابهين ، وكانا يلقيان من النّاس كل التشريف كما لو كانا من أبناء الملك ذاته .

---

(1) راجع التّوراه (تكوين – 41 : 45) : فوطي فِرَع كاهن أون כהן אן .

(2) في سفر التكوين (41 : 51) أن يوسيف سمى بكره مَنَشّيه قائلاً : إن الله قد أنساني جميع شقائي وكل بيت أبي ، وسمّى الثاني إفرايم قائلاً : إن الله قد أثماني في أرض مذلّتي .

غير أن سنوات الخير السبع أتت إلى ختامها ، فأضحت الحقول مُمحلة وكفّت الأشجار عن حمل الثّمار ، وراحت المجاعة التي تنبّأ بها يُوسيف تُلقي بظلالها القاتمة وتهدّد بحلولها على الأرض التي كانت تُعرف بخصوبتها .

فلمّا فتح النّاس حواصلهم ، وجدوا مع أسفهم البالغ أن العثّ والعَفَن قد استغلاّ إهمالهم أيّ استغلال . فصاحوا بفَرْعُوه : «أعطنا طعاماً ، لا تدعنا نموت من الجوع أمامك نحن وأطفالنا ، أعطنا نرجوك من الوَفر المكدّس في أهرائك» .

فأجابهم فَرْعُوه : «لِمَ تتصايحون إليّ أيها المُهملون ؟ أما كان نبّهكم يُوسيف إلى المجاعة التي حلّت بنا ؟ فلمَ لم تستمعوا إلى كلامه وتطيعوا أوامره إليكم بأن تلزموا جانب الاقتصاد والحرص ؟» . قال النّاس : «وحقّ حياتك يا مولانا ، كما تكلّم يُوسيف قد فعلنا ، فرُحنا نجمع ذُرتنا خلال سنوات الخير ، ولكنّا لمّا حلّ فينا الجوع وأمحلت الأرض فتحنا صوامعنا فوجدنا العثّ قد أهلك المؤن التي كنّا آخذين في تخزينها» .

فلخشية الملك أن تكون استعداداتهم غير مُجدية في مواجهة آفة المجاعة ، أمر النّاس بالتّوجّه إلى يُوسيف ، وقال لهم : «أطيعوا أوامره ولا تعصوا كلامه» . فكرّر النّاس أما يُوسيف صياحهم طلباً للطعام ، كما كانوا فعلوا أمام فَرْعُوه . ولمّا سمع يُوسيف كلام النّاس وأدرك حاجتهم الملحّة للمعونة ، فتح أهراء الملك ، وراح يبيع المؤن للنّاس الجياع .

وراحت المجاعة تتفاقم وتزداد في أرض مصر ، وانتشرت في كنعان وأرض الفلسطينيين ، وفي الجانب الآخر من نهر الأردن . فلمّا سمع أهالي هذه البلاد بأن القمح متوفّر في مصر ، أتوا بأجمعهم إليها ليمتاروه ، مما ألجأ يُوسيف إلى تعيين العديد من المقدّمين لبيع القمح للحشد الهائل من النّاس .

وراح تفكير يُوسيف يتّجه إلى موطن أبيه ، وأدرك أن إخوته سيضطرون للمجيء إلى مصر لشراء الغذاء ، حيث أن المجاعة كانت شديدة في ديرتهم . ولذا قام بتوجيه الأوامر أنه لا يجوز لأحد ممن يرغب بشراء القمح أن يرسل خادمه بهذا الغرض ، بل على ربّ الأسرة الحضور شخصياً أو إرسال أبنائه . وأعلن أيضاً

بأن أمر الملك ونائبه ينصّ على أنه لا يجوز لأحد شراء القمح من مصر بغية بيعه والاتجار به في البلدان الأخرى ، إنما يقتصر حقّه على الحصول على القُوت القائم بأوَد أسرته وحسب . وكذلك فلا يحقّ لأي شارٍ ابتياع أكثر من حمل دابّة واحدة فقط من القمح .

وقام بتعيين حرّاس على مداخل مصر كلّها ، وكل من يمرّ عبر هذه المداخل كان ينبغي له تقييد اسمه واسم أبيه في سجلّ مخصّص ، ويتعيّن على الحرّاس جلب هذا السّجل في كل ليلة ليُوسيف كي يُراجعه . وخطّط يُوسيف لذلك كلّه بُغية أن يتثبّت من مجيء إخوته لشراء الغذاء . وتمّ تنفيذ هذه التعليمات بأسرها تماماً بحذافيرها .

فلمّا علم الآب יעקב يعقوب أن القُوت متوفّر للمبيع في مصر ، طلب إلى أبنائه السّفر إليها والتزوّد بمؤن غذائية ، حيث كانت المجاعة تتفاقم بشكل يُنذر بالخطر ، وخشي أن تعاني أسرته من عقابيلها . وأوصى يعقوب بنيه أن يدخلوا المدينة من مداخل عدّة ، حتى لا يُقابلوا بالرّفض بكميّة الشراء التي يرومونها ، ففعلوا ما أمرهم به .

وهكذا هبط بنو يعقوب إلى مصر ، وفي أثناء طريقهم فكّروا بأخيهم يُوسيف ، وراحت ضمائرهم تؤنّبهم على القسوة التي عاملوه بها ، فقال بعضهم للآخر : «ترانا نعلم بأن يُوسيف قد حُمل إلى مصر ، فالآن حينما نبلغ المدينة فلنبحث عنه ، فربما نقع على أخباره ، ونستردّه عندها من سيّده» .

هبط بنو يعقوب العشرة إلى مصر ، وكان بنيامين ليس معهم ، لأن أباه خشي أن يلحقه سُوء كما حصل لابن راحيل الآخر ، فأبقاه إلى جانبه في موطنه لم يبارحه . ودخل بنو الآب العشرة أرض مصر من عشرة مداخل مختلفة ، فدوّن الحرّاس الذين عند المداخل أسماءهم ، فأُرسلت مع سواها إلى يُوسيف في ختام النّهار . ولمّا قرأ يُوسيف الأسماء أمر بإغلاق الأهراء كلّها ما خلا واحداً ، وأمر أيضاً بحضور كل شارٍ أمام هذا الهُري لتقديم اسمه . وذكر أسماء إخوته قائلاً : «إن تقدّم أمامكم هؤلاء فقوموا بالقبض عليهم ، بأكملهم» .

فلمّا دخل بنو يعقوب المدينة التقوا ثانيةً ، وقبل أن يقوموا بشراء القمح قرّروا القيام ببحث مفصّل عن أخيهم . فزاروا جميع أماكن اللّهو العامّة ، وأماكن العبادة ، ولكن رغم متابعتهم البحث ثلاثة أيام لم يظفروا بطائل .

فلمّا انقضت الأيام الثلاثة ، ولم يظهر إخوة يُوسيف أمام الهُري ، تعجّب هذا الأخير لتأخّرهم ، وأرسل ستة عشر رجلاً من عبيده للبحث عنهم خفيةً في المدينة . فتمّ العثور عليهم بين ممثّلي المسارح المصريين ، وجُلبوا على الفور أمام نائب الملك .

كان يُوسيف جالساً على عرشه مُرتدياً حلّته الملكيّة ، وحوله مُقدَّموه ، لمّا مَثُل إخوته وركعوا أمامه إلى الأرض . فبُهروا للغاية لما رأوه أمامهم من هذا السّيد الباذخ صاحب الشّوكة ، بما عليه من حُسن وفخامة طلعة ، لكنهم لم يميّزوا فيه أخاهم .

فكلّمهم يُوسيف قائلاً : «من أين أتيتم ؟» ، أجابوا : «من أرض كنعان ، لكي نبتاع طعاماً ، فها هي المجاعة قد أثخنت في الأرض ، وقد علم عبيدُك أن القمح مطروح للبيع في مصر ، فقدمنا هنا لنمتار مؤناً لأنفسنا ومثلها لأهلينا» . لكن يُوسيف قال : «لا ، بل أنتم جواسيس ، وإلا ففيمَ دخولُكم المدينة من عشرة مداخل مختلفة ؟» ، أجابوا : «لا بل نحن سليمو القلب ، عبيدُك ليسوا قطُّ بجواسيس . بل عبيدُك إخوان بَنو رجل واحد ، ويأمره دخلنا المدينة مُنفصلين ، لأنه خشي أن مجيئنا معاً قد يلفت انتباهاً غير محمود» . لكن يُوسيف أصرّ : «بل أنتم جواسيس ، إنما جئتم لتجسّوا ثُغور الأرض . فكل امرئ يأتي لابتياع القمح يُتمّ عمله ويرحل ، أمّا أنتم فها لكم في المدينة ثلاثة أيام ، في الأماكن العامّة وبين الممثّلين . الأمر كما قلتُ ، أنتم جواسيس» .

أجابوا : «مَعاذ الله ، سيّدنا يسيء بنا الظنّ ، نحن اثنا عشر أخاً ، بَنو رجل في أرض كنعان ، يعقوب بن يصحاق ، حفيد أبرَهام العِبْري . هو ذا أخونا الصغير عند أبينا ، ونحن هنا عشرة ، والواحد مفقود لا ندري أين يكون . ظننا أنه ربما يكون في بلادك ، لذلك بحثنا عنه في الأماكن العامّة ثلاثة أيّام» .

سأل يُوسيف : «وما تُراه يفعل ابن يعقوب في هذه الأماكن العامّة ؟» . أجابوا : سمعنا أن اليشْمَعيليين قد باعوه في مصر ، ولمّا كان ذا مظهر بالغ الحُسن فقد وَقَر في ظنّنا أنهم قد يكونوا باعوه في أحد المسارح ، لذلك قصدنا تلك الأماكن راجين أن نعثر عليه ونستردّه» .

قال يُوسيف : «فلنفترض أنكم عثرتُم عليه ، وطلب فيه سيّده مبلغاً طائلاً من المال ، هلاّ كنتم حقّاً مستعدّين لمثل هذه المطالب الفاحشة ؟» فأجاب الإخوة بالإيجاب ، وتابع يُوسيف : «لنفترض أيضاً أنكم عثرتُم عليه ، وأن سيّده رفض بيعه أو تسليمه إليكم بأي شرط كان ، فما أنتم فاعلون والحالة تلك ؟» .

أجابوا : «في هذه الحالة إن لم يُجد الرّجاء ولا بذل المال شيئاً ، سوف ننقذ أخانا بالقوّة . أجل ، ولو كلّفنا ذلك قتل سيّده والفرار به إلى بيت أبينا» . أجاب يُوسيف : «الأمر كما قلتُ إذاً ، ما أنتم إلا جواسيس ، فها أنتم جئتم تخطّطون بمؤامرات دنيئة لأذيّة سكان مدينتنا . لقد كنّا سمعنا وعلمنا كيف قتلتُم كل رجال شِكيم في أرض كنعان من أجل أختكم ، والآن تبغون معاملة رجال مصر بالطريقة ذاتها من أجل أخيكم . لكننا برغم ذلك كلّه سنمنحكم فُرصة لكي تُثبتوا حُسن نواياكم . فلترسلوا واحداً منكم إلى بيت أبيكم لتحضروا أخاكم الأصغر الذي كنتم ذكرتموه . فإن فعلتم ذلك علمتُ أنكم صادقون . ودُونكم ثلاثة أيام للتفكير بالأمر» .

وبناءً على أوامر يُوسيف ، تمّ احتجاز إخوانه في الحبس ثلاثة أيام .

بعد ذلك الحين اتّفق الإخوة على ترك واحد منهم بمثابة رهينة ، فيما يمضي الآخرون إلى كنعان للهبوط ببنيامين إلى مصر . ولذا قام مِنَشّيه بن يُوسيف باختيار شِمعُون كرهينة ، وتمّ الإبقاء عليه في الحبس .

وقبل أن يغادر الإخوة ، خاطبهم يُوسيف مرّة أخرى : «حَذارِ أن تنسوا أوامري ، فإن أحضرتم أخاكم إليّ علمتُ أنكم سليمو القلب ، ويكون لكم أن تتنقّلوا بحريّة في البلاد ، ولا أؤذي أخاكم بل يكون له حريّة الرّجوع معكم إلى بيت أبيكم بسلام» .

فركعوا إلى الأرض أمامه ، ورحلوا من أرض مصر . وفي أثناء رحلتهم إلى موطنهم توقّفوا بخان لإطعام حميرهم ، وفتح ليوي كيسه[1] ، وإذا به يعثر على الفضّة التي دفعها ثمناً للقمح في فم الكيس . فاستطار قلبه وأخبر إخوته بالأمر ، فبُهتوا هم الآخرون . ولمّا وجد كل واحد منهم فضّته عادت إليه ، صاحوا قائلين :

«ما فَعَلَ الله بنا ؟ أيستردّ الرّبّ منا الرّحمة التي بسطها لآبائنا ، إلى أبرَهام وإلى يصحاق وإلى يعقوب ، بأن يُسلمنا إلى أيدي أمير مصر فيهزأ بنا ويجعلنا أمامه أُلعوبة ؟» . فقال يهُوداه : «إنّه لحقّ ! أوَلَم نأثم[2] ونُخطئ أمام الرّبّ ؟ لقد بغنا أخانا ، لحمنا . فلمَ نتشكّى الآن من أن نِعَم الله التي أسبغها على آبائنا قد حُرمنا منها الآن ؟» .

وقال رَؤبين : «ألم أقل لكم لا تأثموا في الولد ؟ وأنتم لم تستمعوا لي ، فنحن مُطالبون بدمه . فيمَ قولكم إذاً : «أين هي تلك الرّعاية التي وعد الرّبّ بها آباءنا ؟» . الحقّ أننا بُئنا بالخُسران وضيّعنا حمايته» .

ثم قصّ الإخوة على أبيهم جميع ما نالهم في أرض مصر ، فقال لهم : «ما ذا الذي فعلتُم بي ؟ أرسل إليكم أخاكم يُوسيف للاستعلام عن أخباركم ، فلا أرى وجهه بعدها قطّ ، وتأتونني بقميصه المدمّى قائلين : «وحشٌ ضارٍ في البريّة افترس ابنك» . وشِمعون أوجّهه معكم لشراء الطعام ، فتقولون لي إنه محبوس في بلد لا رحمة فيه . ثم تبغون الآن أخذ بنيامين هو الآخر ؟ بيُوسيف وبنيامين تُنزلون شيبتي بحسرة إلى القبر . لا ينحدر ابني معكم» .

---

(1) عبارة الأصل : שק (سَق) كيس ، بينما في التُّوراه المعرّبة : جُوالق ، فارسيّة (جُوال) !

(2) استخدمنا هذه المُفردة (إثم ، يأثم ، أثيم) رغم أن لا علاقة لها بمجموعة اللغات المُصطلح على تسميتها بالسّاميّة ، وهي يونانيّة الأصل : αιμια (آتيميّا) تعني : فُسق ، فُحش ، ذَنب . ويُشتق منها : αιμος (آتيموس) : فاسق ، فاحش ، مُذنب . ولها في اليونانيّة اشتقاقات عديدة تدلّ على أصالتها فيها ، ثم إنها لا توجد في اللّغات السّاميّة قديماً بل دخلت العربية حصراً من اليونانية في زمن قديم (بالاحتكاك الثقافي واللغوي مع بيزنطة) فظُنّت فيها أصليّة . وفي العبْرية : רשע (راشاع) : قاس ، شرّير ، مُذنب . من فعل (راشَع) : أخطأ ، أساء ، أذنب . أما عبارة التّوراه فهي : חטא (خاطا) : أخطأ .

فقال رَوبين : «حياة ولديّ أجعلها في يدك ، فإن لم نردّ إليك بنيامين سالماً آمناً ، تكون حياتهما تعويضاً للخسارة . لكن يعقوب عارضه قائلاً : «ولا حتى أنتم تهبطون مصراً من جديد ، بل تبقون هنا . وابني لا ينحدر معكم فيموت كما مات أخوه» .

فقال يِهوداه لإخوته : «الآن لا تُلحفوا عليه بالطلب أكثر . بل دعوه حتى تنفد هذه المؤن ، فإن ألجأتنا الحاجة وعضّنا الجوع ترونه نزل عند رغبتنا» .

وحدث أنه عندما نفدت المؤن تقاطر الأحفاد حول يعقوب وتصايحوا به باكين : «أعطنا خبزاً !» . فتمزّق قلب يعقوب من المرارة لبكائهم ، واستدعى أبناءه فقال لهم : «ألستم تسمعون أصوات أبنائكم يبكون طلباً للطعام ؟ إنهم يصرخون بي باكين : «أعطنا خُبزاً» ، وليس لديّ ما أعطيه لهم . فأرجوكم اهبطوا مصراً وامتاروا لنا شيئاً من الطعام» .

فأجاب يِهُوداه قائلاً لأبيه : «إن أرسلتَ معنا بنيامين مضينا ، وإلا فليس إلى ذلك سبيل . فملك مصر عاهل ذو بأس شديد ، لا نجرؤ على العبث معه . ونحن إن عُدنا إلى مصر وليس معنا أخونا الأصغر ، فإنه لُمهلكنا جميعاً . يا أبانا ليس في وسعنا أن نعصي هذا الملك ، فهو أعظم حتى من أبيمِلِك الفلسطيني אבימלך הפלשתי . إنك لم ترَ ما رأيناه ، عرشه وقصره وحشود المقدّمين حوله ، ولم تتلمّس مثلنا حكمته وعلومه وفهمه . فقد باركه الله بمزايا فائقة ، وهو أعظم من كل الخلق قاطبة . لقد أنبأنا بأسمائنا ، وبما حدث لنا في سني شبابنا ، حتى أنه سأل عنك قائلاً : «أما زال أبوكم على قيد الحياة ؟ أأموره كلّها بخير ؟» ، وأنت لم تسمع عن سُلطته كما سمعنا ، فحكمه على النّاس ناجزٌ مُطلق ، فإن قال امضوا يمضون وإن قال تعالوا يأتون ، والنّاس رهن كلمته ، حتى بغير صوت سيّده فَرْعُوه . أوّاه يا أبي ، أرسل معنا الفتى ، فبدونه لا نستطيع المضيّ . وإن أبيتَ رأينا بأعيننا أولادنا يموتمون من الجوع» .

فقال يعقوب متحسّراً : «لمَ أخبرتُم الرّجل أن لكم أخاً ؟ ألا بِئسَ وساءَ ما قد صنعتُم !» .

قال يِهُوداه : «سلّمني الفتى بيدي ، ودعنا نهبط مصراً ونبتاع القمح . فإن لم أُعده إليك آمناً فأنا مُذنب إليك طول حياتي . أطفالنا ينتحبون أمامك ، وليس لدينا ما نسدّ به رمقهم . فارحمهم وأرسل أخانا معنا . ألم تحدّثنا مراراً عن الرّحمة التي وعدك بها الله ؟ فإذاً هو يحفظ ابنك ويعيده إليك لم يمسسه ضُرّ . فلتدعُ الرّبّ من أجلك وتضرّع إليه أن يعطينا نعمةً وحظوة في عيني أمير مصر . وها نحن لو أننا ما مكثنا هنا طول هذه المدّة لكنّا الآن قد عُدنا بالطّعام . أجل ، كنّا عُدنا إليك مرّتين ، ومعنا ابنك سالماً آمناً» .

فأجاب يعقوب : «الرّبّ الإله يهبكم رحمةً في عيني ملك مصر ومُقدّميها . به آمنتُ وعليه اتّكالي . قوموا فامضوا إلى الرّجل ، ومعكم خذوا هدايا من أطيب فاكهة الأرض . الرّبّ يكون معكم ، وتعودون إلي بأخويكم بنيامين وشِمعُون» .

فقام بنو يعقوب وانحدروا ثانيةً إلى مصر . واصطحبوا معهم بنيامين ، كما أخذوا هدايا وكمية مُضاعفة من الفضّة . فودّعهم يعقوب قائلاً : «انتبهوا للفتى ، لا تُفارقوه لا في مصر ولا في أثناء الطريق» .

ولمّا رحلوا قَصَدَ حضرة الله القدير بصلاته داعياً : «يا ربّ ، يا إله السّماء والأرض ، أضرع إليك فلتذكُر عهدك إلى أبينا أبرَهام . وأضرع إليك أن تذكر حُسناك بيصحاق أبي ، فلأجلهما ترفّق بأبنائي ولا تُسلمهم لأيدي ملك مصر بالسّوء . أعدهم إلي ، أتوسّل إليك ، وأرجعهم سالمين مع أخويهم» . أما زوجات بني يعقوب وأحفاده ، فرفعوا هم الآخرون عيونهم وقلوبهم إلى السّماء بالبكاء قائلين : «خلّص يا ربّ آباءنا من ملك مصر» .

ووجّه يعقوب كذلك رسالة ، ليسلّمها أبناؤه ليدي يُوسيف ، وفيها[1] :

«من خادمك يعقوب بن يصحاق بن أبرَهام العِبْري . من أمير الله إلى الملك الحكيم ذي البأس صافِنَتْ فَعْنِيَح ملك مصر ، سلامٌ لك» .

---

(1) هذه الرّسالة لا ذكر لها في نصّ التّوراه ، راجع سفر التكوين – الأصحاح 43 . ولدى المقابلة على نصّ التّوراه نجد في التّلمود عموماً زيادات تفسيرية كثيرة .

«يعلم سيدي الملك جيداً أن المجاعة قد أثخنت في أرض كنعان ، لذا قد وجّهتُ أبنائي إليك لشراء الطعام لقُوتنا . وقد كلّفتهم ألا يلجوا المدينة من المدخل ذاته ، لئلا يُثير دخولهم معاً انتباه الأهلين . فها قد أدّى التزامهم بأوامري إلى وقوعهم تحت ظنّك بكونهم جواسيس . فيا سيّدي ، أيعسر على رجل حصيف مثلك أن يستجلي الحقيقة من وجوه أبنائي ؟ لقد سمعتُ الكثير عن حكمتك وفهمك اللذين أبديتهما في تعبيرك لحُلمي فَرْعُوه ، وفي التنبّؤ بهذه المجاعة الشديدة . فكيف يجري إذاً أن تتّهم أبنائي ؟» .

«ها أنا مُحاطٌ بالأبناء ، وإني طعنتُ في السّنّ وشحّ نور عينيّ اللتين ما كفّتا عن ذرف الدّمع السّخين طوال عشرين عاماً حسرةً لفقد ابني يُوسيف ، وها أنا الآن أرسل إليك أخاه بنيامين كما أمرتَ . فإني لأرجوك يا سيّدي أن تترفّق به ، وتعيده إليّ مع إخوته ! إن جبروت الله طالما كان إلى جانبنا ، فهو يجيبُ صلاتنا ودعاءنا ولا يخيّب رجاءنا قطّ . فلتحم ابني القادم إليك ، والله ينظر إليك وإلى مملكتك بعين الرّضى والقبول . رُدّه إلي مع إخوته ، وكذلك شِمعون فلتردّه معهم سالماً» .

وهذه الرّسالة كُلِّف بها يِهُوداه وسُلِّمت إليه في يده .

وهكذا ، هبط بنو يعقوب مصراً ، ومعهم بنيامين والهدايا ، ووقفوا أمام يُوسيف . فأطلق يُوسيف شِمعُون من الحبس ، وجمعه بإخوته . وأخبرهم شِمعون بالمعاملة الطيّبة التي نالها مُنذ رحيلهم ، فقال : «لم أُقيَّد أو أُعامل كسجين ، لكنني أُخذتُ إلى دارة الحاكم فاستُقبلتُ بحفاوة كضيف» .

ثم أخذ يِهُوداه بنيامين وأحضره أمام يُوسيف ، فسجدا على وجهيهما أمامه إلى الأرض . وقدّم له الإخوة الهديّة التي أرسلها أبوهم إليه . فسألهم يُوسيف إن كان كل شيء على ما يرام بخصوص أولادهم وأبيهم الشيخ ، فأجابوه : «كلّهم في سلام» . ثم قدّم يِهُوداه رسالة أبيه إلى يُوسيف ، فتعرّف الأخير إلى خطّ أبيه ، وغلبته مشاعره فاستولت عليه ذكريات طفولته ، فما كان منه إلا أن انسحب إلى حُجرة جانبية وراح يبكي بمرارة .

ولمّا عاد إلى أمام إخوته ، تعلّقت أنظاره ببنيامين ابن أمّه ، وسأل : «أهذا أخوكم الصغير الذي ذكرتموه لي ؟» . ولمّا اقترب بنيامين منه ، وضع يُوسيف يده على رأس أخيه وقال : «يرأفُ اللهُ بكَ يا بُنيّ» .

ثم تملّك مشاعره وتجلّد وأمر مقدّميه بتقديم الطعام .

ثم لمّا صار الطعام جاهزاً أخذ يُوسيف بيده قدحاً[1] גביע ، وكان من الفضّة الخالصة مرصّعاً بحجارة كريمة ، فأمسكه بيده بحضور إخوته وقال : «أرى في هذا القدح أن رَؤبين هو بِكرُ أبيكم ، ولذا فهو يجلس أولاً ، ثم يليه شِمعُون فليوي فيهُوداه فيَسّاكَر فزَبُولون ، حسب التّرتيب الذي ذكرتُه تبعاً لأعمارهم . أما البقيّة فيتلونهم بحسب أعمارهم» . وأضاف قائلاً : «وأنا أعلم أن أصغر إخوتكم لا أمّ له وأنا أيضاً لا أمّ لي ، فلذا نقعد معاً سويّةً» .

فراح القوم يُبهتون لكلام يُوسيف مليّاً ، في هذا النّهار الذي أمضوه معه يأكلون ويشربون . ووضع يُوسيف حصّتين من الطعام أمام أخيه بنيامين ، فلمّا رأى ابناه إفرايِم ومِنَشّيه ذلك قدّما حصّتيهما أيضاً لبنيامين ، وقدّمت أسِنات امرأة يُوسيف حصّتها أيضاً . فكان لبنيامين خمس حصص من الطعام .

وأمر يُوسيف بإحضار الخمرة ، وأشار إلى إخوته بالشّرب والتبسّط ، فأبوا قائلين : «نحن لم نذُق الخمرة منذ أن فقدنا أخانا» . لكن يُوسيف ألحّ عليهم أن يشربوا ، وأجبرهم على ذلك وراح يُباسطهم . وسأل بنيامين : «ألك أبناء ؟» ، فأجاب بنيامين : «لعبدك عشرة بنين ، وقد أسميتُهم بأسماء تذكّرني بأخي الذي لم أرَه قطّ» .

في الصّباح صرف يُوسيف إخوته ، وطلب إليهم العودة إلى أبيهم بسلام . ولكن لمّا رحلوا ، نادى خَدَمه وأمرهم أن يتبعوهم ويُدركوهم ليُعيدوهم . فلمّا أدركهم خَدَم يُوسيف وقالوا لهم : «لمَ فعلتم هذا السّوء فسرقتم قدح سيّدنا ؟» ، سخط إخوة يُوسيف وأجابوا : «مَن يُوجَد القدح معه فليُقتَل ، ونحن أيضاً نكون لسيّدكم عبيداً» .

---

(1) في التُّوراه المعرّبة بالطبعة الكاثوليكية : جام ، والبروتستانتية : طاس . وهما فارسيتان !

غير أنّهم لمّا عُثر على القدح حيث أمر يُوسيف بوضعه ، في كيس بنيامين ، عادوا حزينين مكسوري الخاطر إلى حضرة يُوسيف . فكان نائب الملك جالساً على عرشه وحوله مُقدّمو دولته مجتمعون ، لمّا دخل إخوته ، فخاطبهم بجفاء قائلاً : «ما هذا الصنيع ال الذي صنعتُم ؟ لمَ أخذتُم قدحي الفضّي ؟ أهو بسبب أنكم لم تُفلحوا في العثور على ذلك الأخ الذي ذكرتموه في البلد ، فأخذتم القدح عوضاً عنه ؟ أجيبوا وأخبروني بمَ فعلتُم هذا الصّنيع» .

فتكلّم يِهُوداه قائلاً : «ما نقول لسيّدي ؟ بماذا نتكلّم وبماذا نتبرّأ ؟ قد كشف الله ذنب عبيدك ، وأرسل علينا هذه المحنة» . ثم قام يُوسيف ، فأمسك ببنيامين وأخذه إلى حجرة أخرى ، فدفع به فيها ثم أوصد الباب دونه . ثم أخبر الباقين بالعودة إلى ديارهم بسلام ، قائلاً : «أُبقي الذي وُجد القدح في حوزته ، وأنتم تعودون بسلام» .

فاقترب يِهُوداه من يُوسيف وقال : «يا سيّدي أتوسّل إليك أن يتكلّم عبدُك كلمةً على مَسمَع سيّدي ، ولا يشتدّ غضبُك على عبدك» ، فأجاب يُوسيف : «تكلّم» . فتابع يِهُوداه : «مُنذ البداية ، مُنذ اللحظة التي وضعنا فيها قدمنا بأرض مصر ، هزئتَ بنا . اتّهمنا بأننا جواسيس ، وأُجبرنا على إحضار أخينا بنيامين إلى هنا . والآن ، ما زلتَ تستخدمنا كأُلعوبة لتسليتك . فليُصغ الملك السّاعة إلى كلامي ، وليُلق إليه بالاً ، وليسمح لأخينا بالعودة إلى أبيه معنا ، وإلا أهلكناك ، أنتَ وكلّ مُقدّميك المبثوثين حولك . أنت تعلم ماذا فعل أخَوان اثنان منّا بمدينة شِكيم من أجل أخت لهما . فلتعلم أنهما ليسا مَن سينتقم لأخيهما بنيامين . بل ها أنا أقوى وأجلد منهما مجتمعين . لتتخلَّ عن عبثك السّقيم بنا وإلا صرعتُك أنت وحُرّاسك معاً . ألا تدري بالعقاب الذي أنزله الله بفَرْعُوه لمّا أساء إلى ساراي جدّتنا ؟ إلى يومنا هذا ما زال سكّان بلدك يحدّثون عن ذلك ! فحذارِ إذاً ، وإلاّ جازاك أنتَ أيضاً بإساءتك في استلاب أخينا بنيامين من أبيه . فالله لا ينسى العهد الذي قطعه لأبرَهام في حماية نسله وتشديد أعدائهم . لذلك فاسمع يا سيّدي إلى الكلام الذي أقولُ ! ذَر أخانا يرجع إلى أبيه ، وإلا كنتُ فاعلاً ما أقولُ . وحذارِ لستَ بالنِّدّ لي ولا بغالبي أنت» .

فأجاب يُوسيف قائلاً : «فيمَ تماديكَ بهذا الفخر الأجوف ؟ فإن هي إلا كلمة واحدة منّي إلى مُقدّمي ، فيُهلكونك بلحظة واحدة أنتَ وإخوتك» . أجاب يِهُوداه : «أُقسم بحياة الله ، إن سحبتُ سيفي لأبدأنَّ بك أنت ، ثم لأختمنَّ بفَرْعُوه ذاته»[1] .

ردّ يُوسيف : «إنّ قوّتك ليست بمقدار تيهك ، فأنا نفسي أقوى منك ، وإن سحبتَ سيفك لأغمدنَّه في جسدك . وبسيفك هذا سأُجهز عليك وعلى إخوتك أجمعين» .

فأجاب يِهُوداه : «يا سيّدي ، الله بيننا يشهد أنني لا أروم قتالاً . أعطنا أخانا واتركنا نمضي بسلام» .

فأجاب يُوسيف : «أُقسم بحياة فَرْعُوه ، إن أتى مُلوك كنعان بأسرهم وكرّروا أمامي مطلبك لما سلّمتهم أخاك . هيا فلتمض أنت وبقيّة إخوتك إلى أبيكم ، أما بنيامين فيكون لي عبداً . قد سرق قدحي وحُرّيته رهينة بيدي» .

أجاب يِهُوداه : «ما فائدة لقب الملك لامرئ مثلك إذاً ؟ دور الملوك فيها ما فيها من آنية الذّهب والفضة وأدواتها ، وها أنت ذا تجادل حول قدح تافه من الفضّة ، بعد أن جعلتَه أنت في كيس أخينا . مَعاذ الله أن يسرق أحد أحفاد أبرَهام شيئاً منك ، أو من أي ملك آخر ، كائناً مَن كان . فلتصمتْ الآن حول هذا الأمر لمصلحتك أنتَ ، وإلاّ شاع الأمر فيقول النّاس : «ها من أجل قدح فضّي يسير يختصم نائب ملك مصر مع قوم ، فيأخذ منهم أحدهم عبداً له» . من أجل سُمعتك أنتَ هلاّ كَفَفْت ؟» .

لكن يُوسيف اكتفى بتكرار ما كان قاله سابقاً : «امضوا ودعوا أخاكم عندي ، فالشَّرع يجعل منه عبداً لي . اذهبوا ، وخذوا القدح معكم» . تمنّع يِهُوداه قائلاً : «أبداً ، لن نتخلّى عن أخينا ولا من أجل ألف قدح ، أو لقاء أي مبلغ من المال يكون في تصوّرك» .

---

(1) ينبغي الإشارة إلى أن هذا النّقاش الحادّ كلّه لا يرد في التّوراه ، بل ما فيها يقتصر على مُناشدة يهوداه ليُوسيف أن يسمح بعودة الابن لأبيه الشيخ ، رحمةً بهذا الأخير .

فأجاب يُوسيف مُسرعاً : «لكنكم تخلّيتم عن أخيكم وتركتموه ، بل وبعتموه بعشرين قطعة من الفضّة» . أصرّ يهوداه : «رُدّ لنا أخانا . الله يشهد علي أنني ما رُمتُ معك قتالاً . دعنا نرحل بغير تناحُر . أوّاه ، ماذا نقول لأبينا إذ عُدنا بغير الفتى ؟ ستقتله الحسرة . أمّا نحن ، فما نقول ؟» .

قال يُوسيف : «قُولوا له إن الحبل لاحقٌ بالدّلو»[1] .

فصاح يهُوداه : «ويلٌ ، ويلٌ للملك الذي يقول زُوراً ويُهتاناً» . فأجاب يُوسيف : «لا تتحدّثوا عن الزُّور والبُهتان . أفَلم تكذبوا على أبيكم فقلتم : «وحشٌ ضارٍ افترس يُوسيف ؟» ، ألم تبيعوه إلى المِديَنيّين بعشرين قطعة ؟ ألا فلتصمتوا ، اصمتوا وليعتريكم الخجل» .

صاح يهُوداه مُهدّداً ومتوعّداً : «نارُ شِكيم تلتهب الآن في صدري . أنتَ وبلدك ستهلكون تحت جام غضبي» .

وفي تلك الأثناء خلال هذا الموقف ، كان يُوسيف وجّه مَنَشّيه ابنه لجلب الجنود إلى قصره ، فهُرعوا بأقصى سرعتهم ، بكامل سلاحهم وعُددهم متأهّبين للهجوم ، خمس مئة من الخيّالة ، وألفان من الرّجّالة ، وأربع مئة من الحرس الاحتياطي القُدماء . فأحاط هؤلاء يهدّدون ويتصايحون ببني يعقوب ، الذين ارتاعوا بشدّة وارتجفت أوصالهم خوفاً على حياتهم .

ثم قال يُوسيف ليهُوداه : «أرجو أن تُطلعني ، لماذا أنتَ دون قومك كلّهم تعارك بضراوة من أجل الفتى ؟» ، أجاب يهُوداه : «اعلمْ أنني قد ضمنتُ لأبينا بروحي عودة الفتى سالماً ، فقلتُ له : «إن لم أعُد به إليك فأكون مُذنباً إليك طول حياتي» . يا سيّدي ، دعني أجدُ نعمةً في عينيك . فلتذرني أردّ الفتى إلى أبيه ، أرجع مكانه عبداً لك[2] . أترى ؟ أنا أقوى منه وأكبر . دعني أكون عبدك بدلاً من بنيامين» .

---

(1) هذا يعني بحسب شروح التّلمود أن الحبل إشارة إلى يُوسيف والدّلو إلى بنيامين .
(2) هذا هنا فحوى الخطاب الأساسي الوارد في التّوراه (التكوين - 44 : 32-33) ، أما كل ما سبقه من خطاب تعنيف فيرد فقط في الحواشي التفسيرية من أجَداه التّلمود .

أجاب يُوسيف : «فليكُن ، لكن بشرط . ليذهب الفتى معك ، ولكن أحضر لي أخاه ، ابن أمّه الذي ذكرته ، فآخذه بدلاً من بنيامين . ألم تجعل نفسك ضماناً له أمام أبيك ؟ لذلك دعني آخذه ، وأما الفتى الذي حللتَ ضماناً له فيعود إلى بيته معك» .

فتقدّم شِمعُون وقال : «أوَلم نقل لك يا سيّدي عندما أتينا إليك أول مرّة أن هذا الأخ المفقود لم نعثر عليه ؟ فكيف ينطق سيّدى بهذا الكلام الباطل ؟ نحن لا نعلم للأسف إن كان هذا الأخ حيّاً أم ميتاً» .

قال يُوسيف : «افترضوا إذاً أني أناديه فيمثُل أمامي ، فهل تعطونه لي بدلاً من بنيامين ؟ وإذا به يرفع صوته صائحاً : «يُوسيف ! يُوسيف ! اظهر يا يُوسيف واجلس أمام إخوتك» .

فبُهت بنو يعقوب بشدّة لهذا الكلام ، وجمد الدّم في عروقهم فيما راحوا يحملقون برُهبة وعَجَب ليروا من أين يطلع عليهم أخوهم .

فقل لهم يُوسيف : «أين تنظرون ؟ ها هو ذا أخوكم أمامكم . أنا يُوسيف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر . ولكن لا تخافوا ، تُراكم ما كُنتم إلا أداة في أيدي القَدَر ، فلإحياء النّفوس بعثني الله إلى هنا» .

فارتاع الرّجال للغاية ، وبخاصّة يهودا الذي بُهت للكلام المُجفّل . أما بنيامين الذي كان في باحة الدّار الدّاخلية فقد سمعهم ، وهُرع إلى يُوسيف وألقى بنفسه على صدره وقبّله ، وراحا ينشجان بالبكاء . وكذلك تأثّر الإخوة الباقون تأثّراً بالغاً وتعجّب النّاس المُحيطون بهم ، وسرعان ما نميت أنباء هذا الحدث إلى قصر فَرْعُوه . وحَسُن ذلك في عيني فَرْعُوه ، فأرسل وفداً من كبار مُقدّميه للتّرحيب بإخوة يُوسيف ، ولكي يطلبوا إليهم باسمه أن يأتوا بعائلاتهم وأشيائهم ويقطنوا مصراً[1] .

---

(1) تعود الرّواية هنا لتتطابق مع نصّ التّوراه ، سفر التكوين – الأصحاح 45 . وحول أسماء أحفاد يعقوب بالتفصيل من أبنائه الاثني عشر وابنته الوحيدة ديناه راجع سفر التكوين – الأصحاح 46 .

أما يُوسيف فألبس إخوته ثياباً جديدة وأنيقة ، وقدّم لهم العديد من الهدايا الثمينة ، وأعطى كلّ واحد منهم ثلاث مئة قطعة من الفضّة . ثم أخذهم إلى فَرْعُوه وقدّمهم إلى الملك . فلمّا رأى فَرْعُوه مدى مَلاحة بني يعقوب سُرّت عينه بهم وقابلهم بإكرام عميم .

ولمّا آن أوان عودتهم إلى أرض كنعان ، أحضر يُوسيف إحدى عشرة عربة من عربات (عجلات עגלות) فَرْعُوه ، وأضاف إليها عربته الخاصّة ، من أجل راحتهم . ووجّه إلى أبيه بهدايا ثمينة ، وثياباً وتُحفاً لأبناء إخوته وأخته ، وكذا إلى زوجات إخوته . كما ورافق إخوته في رحلتهم حتى حدود مصر ، وودّعهم قائلاً :

«لا تتخاصموا يا إخوتي على الطريق . ما جرى قد تمّ بحكمة من الله ، فلم تكونوا أنتم سوى أداة وضعها القدر لإنقاذ الآلاف من النّاس من آفة المجاعة والجوع القاتل» . وكذلك أمَرَهُم بالترفّق في إبلاغ النّبأ العظيم الذي يحملونه إلى أبيهم ، مخافة أن يسارعوا في إبلاغه فيُصاب أبوهم العجوز بصدمة . وآب بنو يعقوب إلى أرض كنعان بفرحة غامرة وقلوب سعيدة .

وحدث أنهم لمّا شارفوا على أرض كنعان أن بعضهم قال للآخر : كيف نروي هذا النّبأ لأبينا ؟ ليس بإمكاننا إخباره فجأة أن يُوسيف ما زال حيّاً .

ولكن صادف عندما بلغوا بِئْر شبيع באר שבע أن سيرَح[1] שרח ابنة أشير أتت لتلقى أباها وعُمومها . وكان لسيرَح صوتٌ عَذب ، وتعزف على القيثارة . فابتدروها قائلين : «خُذي قيثارتك ، وجُوزي فاقعدي قُبالة أبينا ، وبينما أنتِ تعزفين فلتُغنّي ، واذكري في غنائك ابنه يُوسيف ، ودعيه بذلك الشكل يعلم أن يُوسيف حي[2]» .

---

(1) انظر التُّوراه ، تكوين – 46 : 17 . وفي التُّوراه المعرّبة : سيراخ ، باللفظ الإشكنازي ، بغير وجه ، مع أن الاسم ينتهي بحيت مُهملة (كالحاء العربية تماماً) .

(2) هذه الرّواية ليست أيضاً في التّوراه ، بل من أجَداه التّلمود . وفي هذا أمثلة حيّة حول كيفية نموّ الأجَداه على هامش التّوراه ، حتى غدت تكملة وتفسيراً لا ينفصم عُراه عن الكتاب الأم ، مع شروح وحواشٍ أدبية وأخلاقية لمرويات قصص الأولين .

ففعلت الصبيّة كما طُلب منها ، جلست قُبالة جدّها ، وراحت تُغنّيه أغنية جعلت تردّد فيها هذا المقطع :

«تراه يُوسيف لم يُمت ، بل هو حيٌّ ،
عمّي المسلّط بأرض مصر بأسرها»

فسُرَّ يعقوب لغناء الصّبيّة وعزفها ، ووقعت الفرحة في قلبه لسماع صوتها العذب ، فتبسّم لها وباركها . وفيما كان يحادثها وصل أبناؤه بالخيل والعربات ، فقام يعقوب ولاقاهم عند الباب ، فقالوا له : «معنا أنباء سارّة لأبينا . إن يُوسيف أخانا لا يزال حيّاً ، وهو مسلّط على أرض مصر كلّها» .

غير أن يعقوب بقي جامد القلب لم يتأثّر ، لأنه لم يصدّقهم ، حتى رأى الهدايا التي أرسلها يُوسيف ، وجميع علائم مجده . فالتمعت عيناه وانتعشت روحه في أعماقها ، وقال : «حَسبي أن يُوسيف ابني ما زال حيّاً . أمضي وأراه قبل أن أموت» .

وسمع أهالي بِئْر شيبع والدّيار المتاخمة بالخبر ، فقدموا وهنّؤوا يعقوب ، فصنع لهم مأدبة عظيمة . وقال : «سأهبط مصراً وأرى ابني ، ثم أعود إلى أرض كنعان ، كما قال الرّبّ لأبرَهام ، فيُعطي هذه الأرض لنسله» .

وجاءت كلمة الرّبّ ليعقوب قائلاً : «اهبط أرض مصر ، لا تخف ، فإني معك وإني لجاعلُك أمّةً عظيمة» . فأمر يعقوب بنيه وأهل بيتهم بالتجهّز لهبوط مصر معه ، كما تكلّم الرّبّ ، فقاموا ومشوا في طريقهم . وبعث يعقوب يِهُوداه في المقدّمة ، ليُعلن عن قدومه وليختار مكاناً لإقامته .

فلمّا علم يُوسيف بأن أباه في الطريق إليه ، جمع أصحابه ومُقدَّميه وجنود المملكة ، ولبسوا ثياباً فخمة بحليّ ذهبية وفضّيّة ، وتسلّح الجنود بكامل عُدد الحرب ، وتجمّعوا فشكّلوا فرقة هائلة لاستقبال يعقوب على الطّريق ومُرافقته إلى مصر . وصدحت الألحان وعمّت الفرحة في البلاد ، وتجمهر النّاس والنّساء والأطفال على أسطحة الدُّور للفرجة على الاستعراض الرّائع .

كان يُوسيف لابساً ثوباً ملكيّاً ، مع تاج المملكة على رأسه ، ولمّا صار على بُعد خمسين ذراعاً من موكب أبيه ، ترجّل من عربته ومشي ليلاقي أباه . فلمّا رأى الأعيان والأمراء ذلك ، احتذوا حذوه فترجّلوا عن خيولهم وعرباتهم فمشوا معه .

فلمّا رأى يعقوب هذه الحاشية المذهلة تعجّب للغاية ، وسُرّ لذلك أيّما سرور ، والتفت إلى يِهُوداه فسأله : «مَن هذا الرّجل المتقدّم برأس هذه الكوكبة الرّائعة في الثوب الملكي ؟» فأجاب يِهُوداه : «هذا ابنُك» . ولمّا اقترب يُوسيف من أبيه ركع أرضاً أمامه ، فركع مُقدَّموه ليعقوب أيضاً . وركض يعقوب صوب ابنه فألقى بنفسه على عنقه وقبّله ، وبكيا معاً . وحيّا يُوسيف إخوته بشوق .

ثم قال يعقوب ليُوسيف : دعني أموتُ الآن بعدما رأيتُ وجهك ، وقد رأتك عيناي وأنتَ حيّ ولك مجدٌ عظيم . ورافقت الفرقة يعقوب وأهل بيته إلى مصر ، وفيها أعطى يُوسيف آله أجود أراضيها حتى جُشِن[1] גשן .

وأقام يُوسيف في أرض مصر وأدار شؤونها بحكمة . وكان ابنا يُوسيف أثيرين للغاية عند جدّهما ، فلم يُبارحا بيته قَطّ . وعلّمهما يعقوب سُبُل الرّبّ ، ودلّهما على طريق السّعادة والسّلام في خدمة العليّ القدير . وأقام يعقوب وأهل بيته في جُشِن ، وتملّكوا أرضها وتكاثروا فيها إلى حدّ بالغ .

* * *

(1) في التُّوراه المعرّبة عن الترجمة السبعينية اليونانية ، بطبعتيها الكاثوليكية والبروتستانتية : جاسان . وهذا اللفظ العبْري أثبتناه (ولو دون تشكيل) ، فبأي وجه يُقرأ كما قرأوه ؟ أمنيتنا أن يدلّنا أحد على الآليّة العجيبة التي اشتغل وفقها اولئك التّراجمة !

الفصل السادس
موت يعقوب وأبنائه - مُوشيه - الخلاص من مصر

أقام يعقوب في أرض مصر سبعة عشر عاماً ، وكانت مدّة حياته أجمع مئة وسبعة وأربعين عاماً . ومرض يعقوب مرضاً شديداً ، وإذ أمسى عجوزاً وضعيفاً أرسل إلى ابنه يُوسيف وقال له :

«ها أنا ذا أموت الآن ، فاسمع إليّ يا بُنيّ . لا ريب أن إله آبائك سوف يأتيك في الأيام القادمة ، ويردّ شعبه - كما آلى على نفسه - إلى الأرض التي أعطاها لكم ولنسلكم . لا تدفنوني في أرض مصر ، بل في مغارة مَكفِلاه في حِبْرُون بأرض كنعان بجانب أهلي» .

وأرغم يعقوب بنيه على أن يُقسموا على دفنه كما طلب ، وقال لهم : «أعبدوا الربّ إلهكم ، وهو يُنجيكم من النّوازل كما أنجى آباءكم» . وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم أمامه ، فباركهم وآباءهم أيضاً ، بحسب البركات المسطورة في الكتاب المقدّس .

وقال يعقوب ليهُوداه : «أنتَ يا بُنيّ أقوى إخوتك كلّهم ، ومن صُلبك تقوم الملوك[1] . فلتعلّم أبناءك كيف يحمون أنفسهم من الأعداء والأشرار» . ثم عاود مخاطباً أبنائه[2] : «هكذا تحملونني بعد موتي إلى مرقدي في مغارة مَكفلاه . وأنتم يا أبنائي مَن يحملني لا أبناؤكم . فليحمل يهُوداه ويَسّاكَر وزَبُولون الزّاوية الشرقية من نعشي ، أما رَؤبين وشِمْعُون وجاد فيحملون الزّاوية الجنوبية ، وإفرايِم ومِنَشّيه[3] وبنيامين الزّاوية الغربية ، ودان وأشير ونَفتالي الزّاوية الشماليّة» .

---

(1) راجع وصاياه لباقي أبنائه في التّوراه ، التكوين - الأصحاح 49 .
(2) هذه الوصيّة لا ترد في التّوراه ، وتقتصر على أجَداه التّلمود .
(3) استُثني ابنا يُوسيف من شرط جدّهما يعقوب ، لسبب يأتي أدناه .

«أما ليوي فلا يحمل نعشي أو يُساعد في حمله ، لأن نسله يكونون حَمَلة تابُوت عهد الرّب[1] ארון ברית־יהוה في جيوش يسْرَئيل . ويُوسيف لا يُشارك في الحمل ، لأنه مَلِك ، بل يأخذ مكانه ابناه فيمشيان بالقرب من أخيه بنيامين . وكما أقول لكم فافعلوا ، ولا تُهملوا شيئاً من كلامي» .

«وسيحدث ، إن فعلتم كما آمركم ، أن الرّبّ يتجلّى لكم بالفَلاح ويُعطي السّلام لأبنائكم من بعدكم . والآن يا أبنائي فليُكرم بعضكم بعضاً ، ولتعيشوا معاً بوئام ، الأسرة تلقاء الأسرة . علّموا أبناءكم محبّة الله وطاعة وصاياه ، لكي تطول أيّامهم ، فالله يحفظ مَن يُعمل خيراً ويسلك سُبُل الصّلاح كما أمَر» .

فردّ بنو يعقوب : «سنفعل يا أبانا كلّ ما تأمرنا به» .

فأجاب يعقوب : «الرّبّ يكون معكم إن لم تحيدوا عن سُبُله يميناً أو يساراً . وإني لأعلم أن مصاعب عظيمة ستصيبكم أنتم وأبناءكم وأبناء أبنائكم في أرض مصر هذه بالأيام القادمة . لكن فلتعبُدوا الرّبّ ، وهو يهيّء لكم سُبُل النّجاة . وإنه لَمُخرجكم من مصر حتى تعودوا إلى أرض آبائكم فترثونها ، وتُقيمون بها آمنين» .

ولمّا اختتم يعقوب كلامه هذا ، جذب قدميه إلى سريره ، وانضمّ إلى آبائه . فلمّا رأى يُوسيف أن أباه مات وقع على وجهه البارد وبكى بُكاءً مريراً ، وصاح بكل ما لديه من قوّة : «أبتاه ، أوّاه يا أبتاه !» . ومزّق أهل بيت يعقوب كلّهم ، أبناؤه وزوجاتهم وأبناؤهم ، ثيابهم ولبسوا مُسوحاً وحثَوا على أنفسهم الرّماد ، وناحوا على الآب الكبير . وكذلك ناح عليه المصريون الذين كانوا على معرفة به .

ثم أمر يُوسيف الأطبّاء بتحنيط جُثمان أبيه ، وأقام عليه الحداد ، مع أهل بيته وأقاربه وأصدقائه المصريين ، سبعين يوماً . وبعد مضيّ أيام الحداد هذه تقدّم يُوسيف من فَرْعُوه الملك وقال له : «أتوسّل إليك ، اسمح لي أن أمضي فأدفن أبي ثم أعود» . فأجاب فَرْعُوه : «امضِ بسلام فادفن أباك» .

---

(1) «تابوت عهد الرّب» (أرون بْريْت يهُواه) من المُصطلحات الدّينيّة البارزة لدى اليهود . انظر عنه سفر يهُوشُوَع (المسمّى يشوع في الترجمة العربية) – 3 : 3–11 .

فقام يُوسيف وتجهّز مع إخوته لحمل جُثمان أبيهم إلى أرض كنعان ، كما أمرهم . وأصدر فَرْعُوه بياناً أمر فيه أبناء مصر جميعاً بتكريم يُوسيف عن طريق المُشاركة في جنازة يعقوب ، وتقديم آخر فروض الاحترام إليه . واستجاب أبناء مصر بأعداد كبيرة لرغبات الملك . وصعد مع يُوسيف وإخوته جميع عبيد فَرْعُوه وأعيان بيته ، وأعيان أرض مصر ، والأمراء والأشراف ، وكل مَن يَتبع لأهل بيت يُوسيف .

وحمل بنو يعقوب النّعش الذي رقد عليه جُثمان أبيهم ، كما أمرهم ، وقد جُعل على النّعش صَولجان وتاج مُذهبان . وتبعت جيوش مصر جُثمان يعقوب ، مُشاةً وخيّالة ، ومعهم حرس فَرْعُوه الشّخصي وحرس يُوسيف أيضاً .

وحدث عندما بلغ موكب الجنازة بيدر أطاد[1] גרן אטד الذي في عبر نهر الأردنّ ، أنّهم توقفوا عنده وأقاموا مَناحةً ونَدَبوا نَدباً عظيماً . فلمّا سمع ملوك كنعان باقتراب موكب جنازة يعقوب ، توجّهوا للانضمام إليها ، تعبيراً عن حُزنهم ومحبّتهم للأب الرّاحل .

وكذلك قدم عيْسَو أخو يعقوب مع أبنائه ومَن يتبع إليه من رجال ، ثم تابعت الجنازة طريقها إلى حِبْرُون ، إلى مغارة مَكفِلاه . لكنّهم عندما وصلوا المغارة ، إذا بعيْسَو وبنوه وأتباعه واجهوا يُوسيف وإخوته قائلين : «لا يُدفنُ يعقوبُ ثَمَّة ، فهذه المغارة لنا ولأبينا[2]» . فغضب يُوسيف وإخوته غضباً جَمّاً ، وقال يُوسيف لعيْسَو : «ما هذا الذي تقوله ؟ أوَلم يشترِ يعقوب أبي منك ، عقب موت يصحاق ، كلّ أملاكك في أرض كنعان حقّاً قبل خمسة وعشرين عاماً ، لقاء مبلغ طائل من المال ، لكي تكون ميراثاً لأبنائه إلى الأبد ؟ فكيف تقول الآن ما تقول ؟» .

فأجاب عيْسَو : «لم أبع ليعقوبَ شيئاً» . أجاب يُوسيف : «لدينا الصكوك وعليها توقيعك الذي يُثبت أن ما نقوله لَهو الحقّ» . قال عيْسَو : «إذاً فلتروني هذه الصكوك ، وكل ما كتبتُه يدي فأنا به مُلتزم» .

---

(1) انظر التّوراه ، تكوين – 50 : 10 .

(2) في التّوراه خلاف ذلك تماماً ولا يرد ذكر أي نزاع ، انظر سفر التكوين – 50 : 13 .

فاستدعى يُوسيف أخاه نَفتالي ، الذي كان بسرعة خطوه يسبق الأيِّل ، ولخفّة وَطئه كان بوسعه أن يجري فوق سُنبُلة القمح ذات الذّؤابة دون أن تنثني تحت وَطء قدميه . فقال يُوسيف لنَفتالي : «امضِ بسُرعة إلى مصر وأحضر لي الصّكوك المتعلّقة بالمغارة ، وكذلك الصّك الذي باع بموجبه حقّ بِكريّته لأبينا . هيّا أسرع وعُد بالعَجَل» .

فلمّا علم عيْسَو بأن نَفتالي قد مضى بهذه المهمّة توقف عن متابعة الشّعائر الجنائزيّة ، وراح يُوسيف وإخوته يحرسون جُثمان أبيهم ومَغارة الدّفن . ثم في اليوم التالي نشب قتال بين الفريقين ، عيْسَو وأتباعه من جهة ، ويُوسيف والعِبْريون ومَن تبع موكب الجنازة من مصر ، من جهة أخرى .

وكان من بين الفريق الثاني حُشيم[1] חשים بن دان الذي كان أبكمَ ، وكان مُكلّفاً بحراسة التّابوت الذي يضمّ جُثمان جدّه . ورغم أنه لم يكن طرفاً في النّزاع النّاشب ، فقد لاحظ أن أمراً غير اعتياديّ كان يجري ، فراح يستفسر بالإشارة ممّن يدنو منه لمَ لم يتمّ دفن الميت بعد ، فعلم بتدخّل عيْسَو وبتعطّل الشّعائر .

وحدث أنه عندما فهم ما جرى بالضبط استشاط غاضباً ، فسارع إلى وسط القتال وانفرد بعيْسَو ، فأطاح برأسه عن كتفيه بضربة واحدة . فانتصر بنو يعقوب على أعدائهم ، وقُتل من فريق عيْسَو أربعون رجلاً ، بينما لم يُمنَ الفريق الآخر بأيّة خسائر . وهكذا بموت عيْسَو تحقّقت صحّة مخاوف رِبْقاه ، عندما قالت يوم نَوَى عيْسَو قتل يعقوب : «لئلاّ أثكلُكما في يوم واحد» (تكوين – 27 : 45) .

ثم تمّ دفن يعقوب في مغارة مَكفِلاه[2] ، وحضر بنو عيْسَو الدّفن . ومكث يُوسيف وإخوته في بيوتهم سبعة أيام نائحين ولا يزاولون أشغالهم المُعتادة . وبعد ذلك الحين ، رغم أنهم كانوا يقومون بأعمالهم اليوميّة استمرّوا على حدادهم اثني عشر شهراً ، فأضحى هذا منذ ذلك الحين عُرف اليهود عند موت الأقارب .

---

(1) هو الابن الوحيد لدان ، انظر التّوراه ، تكوين – 46 : 23 . وليست الرّواية في التّوراه .

(2) انظر التّوراه (تكوين – 50 : 13) : «فحملوه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المَكفِلاه التي اشتراها أبرَهام مع الحقل مِلك قَبر من عِفرون الحثّي حذاء مَمْرا» .

أما بنو عيْسَو المهزومون فقد هربوا مع إليفاز بن عيْسَو ، حاملين جُثمان عيْسَو معهم . أما رأسه فقد دُفن في حِبْرُون حيث سقط ، لكنهم دفنوا جسده في جبل سِعير .

وحدث في السنة الثانية والثلاثين بعدما هبط بنو يسْرَئيل مصراً أن فَرْعُوه ، صديق يُوسيف ، قد مات . وكان يُوسيف آنذاك في الحادية والسّبعين من العمر . وقبل موته ، أمر فَرْعُوه ابنه الذي خَلَفَه في الحُكم أن يُطيع يُوسيف في جميع الأمور ، كما ترك مثل هذه التّعليمات مدوّنة . وسَرَّ ذلك شعب مصر ، لأنهم أحبّوا يُوسيف ووثقوا به تمام الثّقة . ولذا فخلال مدّة حُكم هذا الفَرْعُوه على مصر كانت إدارة البلاد تتمّ وفق إدارة يُوسيف ومشورته . وكان الرّبّ معه ، فكانت أعماله بأسرها موفّقة . وكانت حكمته تزداد يوماً إثر يوم ، وطاب لمص بأكملها أن تُبادره بالاحترام والتشريف . وحكم يُوسيف مصر ثمانين عاماً ، وأقام إخوته في جُشِن بسلام ونعموا بالوفرة وتكاثروا إلى حدّ بعيد ، وعبدوا الرّبّ وفق التّعاليم التي لقّنهم إيّاها يعقوب أبوهم .

وأقام يُوسيف بأرض مصر ثلاثاً وتسعين سنة ، فكان فيها بمثابة الأمير الحاكم مدّة ثمانين عاماً . ثم دنت منه الأيّام التي أحسّ فيها باقتراب يد الموت . فأرسل إلى إخوته وأبنائه أجمع ، فتحلّقوا حول سريره .

قال : «ها أنا ذا أموتُ ، لكن الرّبّ سيأتيكم لا ريب ويُخرجكم من هذه الأرض إلى الأرض التي أقسم إلى آبائكم أن يُعطيها لكم . والآن عندما يأتيكم العليّ القدير لذلك ويقودكم خارج مصر ، فأصعدوا عظامي من ها هُنا» .

وألزم يُوسيف بني يسْرَئيل بالقَسَم ، على أنفسهم ووعلى نسلهم ، بأن يحملوا معهم عظامه عندما يصعدون خارجين من مصر .

ومات يُوسيف وهو ابن مئة وعشر سنين ، في السنة الحادية والسّبعين من بعد دخول بني يسْرَئيل مصر ، فحُنِّط جسده ودُفن بعده في الأرض بقُرب ضفّة النّيل . وناحت مصر كلّها على يُوسيف سبعين يوماً ، أما إخوته فناحوا عليه سبعة أيام كما فعلوا ليعقوب أبيه .

ثم أخذ فَرْعُوه المملكة إلى يديه ، وحكم الشعب برُشد وبإيمان حَسَن .

وفي السنة ذاتها مات زَبُولون بن يعقوب ، بعُمر مئة وأربعة عشر عاماً . ويعده بخمس سنين مات شِمْعُون ، بعُمر مئة وعشرين عاماً . ويعد ذلك بأربع سنين مات رَؤبين ، بعُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ومات دان في السّنة التالية عن مئة وأربعة وعشرين عاماً . ويَسّاكَر مات بعد سنة منه ، معمّراً مئة واثنين وعشرين . فتبعه أشير ، بعُمر مئة وثلاثة وعشرين . ورحل جاد في السنة التالية ، عن عُمر مئة وخمسة وعشرين عاماً . ويهوداه في السنة التالية ، عن عُمر مئة وتسعة وعشرين عاماً . وعاش نَفتالي سنة بعدها ، فمات بعمر مئة واثنين وثلاثين عاماً . ومات ليوي في السنة التالية ، عن مئة وسبعة وثلاثين عاماً ، فعمّر إلى سنّ فاقت أعمار أخوته كلّهم[1] .

وبعد موت يُوسيف وإخوته ، شرع المصريون في إيذاء اليسْرَئيليين ، وراحوا من ذيّاك اليوم ينغّصون حياتهم ، إلى اليوم الذي خرجوا فيه أخيراً من أرض مصر . وحرموهم من الأرض الخصيبة التي أعطاها يُوسيف لهم ، ومن البيوت التي بنوها والدّور التي صنعوها لأنفسهم . وقَسَت أيادي المصريين باطّراد على الشّعب ، حتى أضحت حياتهم لا تُطاق .

وفي السنة الثانية بعد المئة بعد هبوط يسْرَئيل لمصر ، كان فَرْعُوه الملك وذاك الجيل بأكمله قد بادَ وانقرض ، فقام ملك جديد وشعب جديد لم يُدركوا يُوسيف أصلاً ، فملكوا البلد وحكموها .

وكان فَرْعُوه الأصغر هذا في التاسعة والأربعين من العُمر عندما تُوِّج ملكاً ، وكما جرت العادة عند تولّي عاهل جديد السّلطة ، مَثُل وزراؤه بين يديه ليُطلعوه على شؤون مملكته وقضاياها . فكلّمه هؤلاء قائلين : «هاهم أولئك الشّعب بنو يسْرَئيل قد أضحوا أكثر منّا عدداً ونفيراً . نتوسّل إليك مُرنا أن نُهلكهم بالتّدريج وإلا أربوا في البلد وأضحوا شَركاً لنا وحجر عَثرة في طريقنا . ولربما إن أصابتنا حربٌ ضمّوا قواهم إلى صفوف أعدائنا فيخرجوننا من وطننا» .

---

(1) ليس في التّوراه (خروج – 1 : 6) هذه التفاصيل كلّها ، بل هذا من أجَداه التّلمود .

فأجاب الملك : «هذه هي نصيحتي ، وأريد منكم أن تلتزموها جيداً . إن قلعتي فيتوم ورعمسيس ليستا على قدر كاف من القوّة والتحصين ، وينبغي إعادة بنائهما بعناية كبيرة . فلنُعمل الحيلة ، انشروا باسمي بياناً يقول :

«مَرسوم من فَرْعُوه ملك مصر : على كل مواطن مُطيع أن يُشارك في إعادة بناء وتحصين قلعتي فِتُوم פתם ورَعَمْسيس רעמסס ، لكي نكون على أتمّ التّجهيز لأي عدوّ في زمن الحرب . وعلى كل مواطن الامتثال إلى هذا الأمر ، وله يُعيّن في كل يوم من الخزينة مُرتّب على ما ينجزه من عمل» .

«في البداية عليكم أن تمضوا أنتم أيضاً إلى العمل ، وسيحدث عندما يأتي اليسْرَئيليون للمشاركة معكم أنكم تدفعون لهم جُعالاتهم في كل يوم ، كما قد وعدنا . ثم شيئاً فشيئاً ، تستنكفون أنتم وباقي المصريين عن العمل ، إلى أن يقع تنفيذه على عاتق اليسْرَئيليين بمفردهم . ثم تُعيّنون عليهم مُشرفين مصريين ، وأخيراً عندما يأتون مُطالبين بأجرتهم ، تخبرونهم أنه من الآن فصاعداً عليهم أن يعملوا بغير أجرة . فإن أحجموا عن ذلك أو ثاروا ، كونوا مُتأهّبين فأرغموهم على العمل بالقوّة . أطيعوا كلامي بحذافيره ، وفي الختام أنتم المُفلحون . بهذا تتقوّى بلادنا ، وأمّا العمل الشّاق فيقلّل من القوّة العدديّة لهؤلاء النّاس» .

فأعجب هذا الرّأي المصريين إلى الغاية ، واتّبعوا ما جاء فيه بالتفصيل . فتمّ نشر البيان ، وامتثل لأوامره جميع اليسْرَئيليّين ، ما خلا بني ليْوي . وشارك في العمل أيضاً عديد من المصريين ، وكانوا ينالون جُعالاتهم اليوميّة ، بيد أنّهم كانو يُصرفون من العمل تدريجيّاً ، إلى أن بقي اليسْرَئيليّون بعد ثلاثة أشهر يعملون بمُفردهم . ثم عمد نُظّار العمل الذين عُيّنوا عليهم إلى الإمساك عن دفع مُرتّباتهم لهم ، فلمّا أحجموا عن العمل أرغموهم على متابعته بالقوّة .

وهكذا فإن بني يسْرَئيل كلّهم ، خلا سِبط ليْوي منهم ، الذين عانوا من عَنَت المصريين ورفضوا العمل مقابل أجرة ، ثم ما عاد بالإمكان إجبارهم على العمل بغير رواتب ، تمّ دفعهم بالإكراه إلى هذا العمل ، فقوّوا حصون مصر كلّها بعمل الآجرّ وبفلاحة الأرض ، إلى أن ذكرهم الرّبّ وأنجاهم من البلد .

ولكن كلّما ازداد العبء على كواهل اليسْرَئيليين ، لاح أن أعدادهم كانت تتزايد بسرعة . وفي السنة المئة والخامسة والعشرين من دخول بني يعقوب أرض مصر ، رأى سكّان البلاد أن ما قصدوه من خلال اضطهادهم قد أخفق ، وذلك أن يسْرَئيل ما برح ينمو . ولهذا ، مَثُل الأعيان والحكماء بين يديّ الملك وقالوا :

«أيّها الملك فلتعش للأبد ! بحسب الرّأي الذي أعطيتَنا بخصوص هذا الشّعب يسْرَئيل قد تصرّفنا ، لكنه مع ذلك لم يُجدِ فتيلاً . فكلّما شدّدنا عليهم الوطأة ، ازداد عددهم ونموّهم ، وأرض جُشِن الآن تعجّ بهم . فمن حكمتك نطلب ، نحن وشعبك أجمع ، الرّأي في كبح هذا الشّعب وإنقاص عدده» .

فأجاب الملك : «هاتوا ما عندكم من رأي بخصوص الحيلة في هؤلاء ، فإني أودّ سماع آرائكم» .

أجاب أيوب[1] איוב ، وهو من نواحي أرض عُوز עוץ ، وأحد مُستشاري الملك ، فقال : «إن كان يحسُن أمام الملك ، فإنّي أتجرّأ على الكلام . إنّ الرّأي الذي قدّمه لنا الملك بخصوص هذا الشّعب كان صائباً ، والأسلوب الذي اتّبعناه في تنفيذه سنستمرّ عليه ، وما الرّأي الذي أطرحه الآن ، بإذن الملك ، إلا إضافة إلى الرّأي ذاته . فها نحنُ منذ سنوات عديدة ما برحنا نخشى وقوع حرب علينا ، كما أننا خشينا بالمثل أمر انتشار اليسْرَئيليين في البلاد وامتدادهم عبرها ، لئلاّ يخرجونا من أوطاننا . فالآن إن حَسُن أمام الملك ، فليَصدُر أمرٌ ملكي وليتمّ تدوينه بين شرائع مصر ، لئلاّ يطاله نَقض أو تعديل . ولينصّ هذا الأمر على سفك دم كل الذُّكران المولودين لهؤلاء العِبْريين . فإن اتّبعنا هذا الرّأي وقتلنا الذُّكران أجمع ، لا نبقى نخشى خيانة هذا الشّعب في المُستقبل» .

وحاز هذا الرّأي على قبول الملك ومُستشاريه وحُكمائه ، ففعل الملك ما أوصى به أيوب . وتمّ إصدار بيان ونُشر عبر البلاد ، يقضي بسفك دم كل مولود ذكر يُولَد للعِبْريين .

---

(1) هو ذاته أيّوب صاحب السِّفر المعروف باسمه (وهو الثالث) من أسفار الكتوبيم (أي القسم الثالث من الكتاب المقدّس لدى اليهود) ، وهو فيه مجرد صدّيق وليس نبيّاً .

وكان يعيش بأرض مصر رجل اسمه عَمْرام עמרם ، بن قِهات קהת بن لِيْوي بن يعقوب . تزوّج هذا الرّجل بعمّته[1] يُوكيِد יוכבד بنت لِيْوي ، فولدت ابنةً سمّتها مِريَم[2] מרים ، لأنها وُلدت في الأيّام التي جعل بها المصريّون ينغّصون حياة العِبْريين . ثم بعد ذلك ولدت ابناً ، فسمّته أَهَرُون אהרן .

وحدث في السنة المئة والثلاثين من دخول يسْرَئيل أرض مصر أن فَرْعُوه ملك البلاد حَلَم بأنه كان جالساً على عرشه ، فلمّا رفع عينيه شاهد أمامه رجلاً عجوزاً يُمسك بيده ميزاناً كبيراً . فعلّق العجوز الميزان ، وأخذ أعيان مصر جميعهم وأمراءها ومُقدّميها ، فأوثقهم معاً وجعلهم في إحدى كفّتي الميزان ، أما في الثانية فقد جعل خروفاً ، وإذا بالملك الحالم يرى الخروف الواحد يزن أكثر من خيرة رجال مصر بأسرهم .

أفاق فَرْعُوه ، وأرسل في طلب وزرائه فروى لهم هذا الحُلم ، الذي أصابه بالخوف والتعجّب في آن معاً . فكان من بين سَحَرة مصر رجلٌ يعدّه الملك حكيماً أكثر من سواه ، اسمه بِلعام بن بِعُور[3] בלעם בן־בעור . فأرسل الملك في طلبه ، وسأله تعبيراً للرّؤيا . أجاب بِلعام بن بِعُور : «إن شراً مُستطيراً سوف ينال من مصر في الأيام التالية . سيولَد لبني يسْرَئيل غُلام ، يكون دمارُ مصر على يديه ، فيُهلك شعبها ويخرُج بقومه منها . فيا سيّدي ومولاي الملك ، دونك الأمر ، ولتُهلك نسل يسْرَئيل ومصالحهم من الآن ، قبل أن تحلّ بلاياهم على أرض مصر» .

---

(1) انظر التُّوراه ، خروج – 6 : 20 . والزّواج في الدّين اليهودي من العمّ أو الخال أو العمّة أو الخالة غير محرّم ، ونظنّه كان يشيع بخاصّة في سبط لِيْوي ، لاختصاصه بالرّياسة الدّينية والحبرية العظمى لديهم . وممّا يروي الأقدمون عن الطائفة اليهوديّة في مدينتنا دمشق أنهم كانوا يؤكّدون مشروعيّة الأمر ، إلا أنهم يعدّونه ثقيلاً ، ولهم في ذلك قول مأثور : «يلّي بتاخُد عمّها ياكِبر هَمّها ، ويلّي بتاخُد خالها يا شُغلان بالها» !
قلنا : قد تعاف النّفس الزّواج بين الأقارب فكيف بالأصول ؟ لا ننسى عجوزاً چركسيّاً قدم الشام فسأل عريساً شاباً من جيرانه عن عروسه فقال : «هي بنتُ عمّي» . فارتجف العجوز مُستنكراً بلهجته الطريفة : «أستغفِرُ الله» ! ولم تُفلح جهود آله في التسكين من رَوعه ، حتى سافر قائلاً وهو يتعوّذ بمرارة : «أهل الشام لا يُراعون محارم الله» !
(2) مِريَم اسم عِبري ، يتوافق مع : מריון ، أي : الثوريّة ، روح التمرّد والعصيان .
(3) انظر التُّوراه ، عدد – 22 : 5 ، وما يليها في أخبار بلعام ، لكن ليس فيها ما يرد هنا .

فاستفسر فَرْعُوه : «ماذا يسعُنا أن نفعل ؟ قد جرّبنا أكثر من حيلة فلم يُفلح منها شيء» .

أجاب بِلعام : «أرسل في طلب أخصّ اثنين من مُستشاريك ، فنتداول الأمر معاً . فأرسل فَرْعُوه في طلب مُستشاريه رِعُوئيل[1] רעואל المِدْيَني وأيوب ، ومَثُلا بين يديه» . فقال الملك : «قد سمعتما حُلمي وتعبيره ، فهلمّا أعطياني رأييكما . كيف لنا أن نهزم شعب يسْرَئيل قبل أن يحلّ بنا شرّهم المُتربِّص ؟» .

أجاب رِعُوئيل المِدْيَني قائلاً : «أيها الملك ، فلتعش للأبد ! إن كان يحسُن في عينيك ، أيها الملك ، فكفّ عن تعذيب هذا الشعب ! إنهم أصفياء الله من سالف الأيّام ، ولم يقع قَطّ أن نجا مَن يضطهدهم من العقاب . لقد جوزي فَرْعُوه السّالف بما آذى سارَاه ، كما جرى لأبيمِلك الفلسطيني للسبب عينه . كما نجا يعقوب من كمائن عيْسَو أخيه ولابان أيضاً . ولقد كان جدّك الأكبر يكرّم جدّهم الأكبر يُوسيف ، حيث أدرك مدى الحكمة التي خصّه بها الله ، والتي أنقذت شعب هذه الأرض من الموت جوعاً . لذا أيها الملك ، فلتُمط عنهم أذاك ودعهم يمضون من هنا إلى أرض كنعان ، مُقام آبائهم الأوّلين» .

فأسخطت كلمات رِعُوئيل المِدْيَني فَرْعُوه ، فطرده من مجلسه خائباً . فبارح رِعوئيل مصر في ذلك اليوم عائداً إلى موطنه ، حاملاً معه عصا يُوسيف .

ثم قال الملك لأيوب مُستشاره : «ما رأيُك بخصوص هؤلاء العِبْريين ؟» ، فأجاب أيوب : «أليس جميع سكّان مصر في يدي الملك ؟ فما تراه حسناً في عينيك فافعله بهم» .

ثم تكلّم بِلعام فقال : «إن أيّاً من هذه السُّبُل المُقترحة لخضد شوكة العِبْريين لن ينفع . فالنّار لا طاقة لها بهم ، إذ نجا أبرَهام من ضرامها . والسّيف فيهم لا يُفلح ، فيصحاق نجا من حدّه القاطع وافتُدي بكبش ذُبح عنه . كما لا يمكن إفناؤهم بالأشغال الشّاقّة ، إذ عمل يعقوب ليلاً نهاراً في خدمة لابان وهو مع ذلك أثرى . فاستمع أيها الملك إلى الرّأي الذي أسديه لك ! وبهذه الوسيلة فحسب

(1) ثم يغدو رعوئيل هذا يهودياً ويُسمّى يترو ، ويتزوّج موشيه من ابنته صِفُراه .

يكون بوسعك أن تتغلّب عليهم . فلتأمر بأن المواليد الذّكور المولودين لهؤلاء العِبْريين ينبغي طرحهم كلّهم في النّهر وإغراقهم ، إذ لم يسبق أن نجا أحد من أسلافهم من الموت غرقاً[1]» .

سرّ هذا الرّأي فَرْعُوه وأمراءه ، وتصرّف الملك بحسب كلام بلعام . فتمّ نشر بيان بالأمر ، وأوفد فَرْعُوه مُقدّميه عبر أرض جُشِن حيث يُقيم البِسْرَئيليّون ، ليثبّتوا من أن كل المواليد الذُّكران كانوا يُطرحون في النّهر عند ولادتهم ، فيما تُترك الإناث على قيد الحياة .

وحدث في تلك المدّة أن مِريَم بنت عَمْرام ، أخت أهَرُون ، تنبّأت فقالت : «سيولد لأبي وأمّي ابنٌ آخر ، وهو يخلّص البِسْرَئيليّين من يد المصريين» . فولد لهما ابنٌ آخر كما قالت ، فلمّا رأته أمّه غُلاماً حَسَناً جميل الهيئة ، أخفتهُ ثلاثة أشهر في داخل مخدعها .

وكان التفتيش في تيك الأيّام شديداً على بيوت العِبْريين عن الأطفال الذّكور ، وتمّ استخدام عدّة وسائط لكشف الأماكن التي كان آباؤهم يخفونهم فيها . فكانت النّساء المصريات يحملن أطفالهن إلى بيوت جُشِن ويُلجئنهم إلى البُكاء ، فكان الأطفال المُخبّؤون يبكون لبكاء هؤلاء فتُكشف مخابئهم . وتُبادر النّساء إلى إخطار فَرْعُوه ، فيأتي المقدّمون للقبض على الطفل الذي يستميت أبواه في سبيل إنقاذه سُدىً .

وحدث أنه بعدما أفلحت يُوكِبِد في إبقاء ابنها مخبوءاً مدّة ثلاثة أشهر ، ذاع خبر ولادته بالطّريقة المذكورة ، فأخذته أمّه بسرعة قبل وصول المقدّمين ، وأخفته في صندوق תבת مصنوع من البَردي ، وخبّأته بعناية في القَصَب סוף الذي ينمو على حافّة النّيل . ووجّهت بابنتها مِريَم لتراقب الصّندوق على مبعَدة ، وتُبصر ما يكون من شأنه .

---

(1) بحسب ما جاء في التّلمود ، عُومل كلٌّ من هؤلاء المستشارين الثلاثة بما هو أهل له . فرعوئيل (يترو) الذي رغب بتخليصهم وإراحتهم نجا من الهلاك واعتنق اليهوديّة . وأما أيوب فنال العقاب المذكور في السّفر المدعو باسمه . أما «بِلعام بن بِعور فقتلوه بالسّيف» (سفر العدد – 31 : 8) .

وكان يوماً حاراً وورطباً وكان الهواء ثقيلاً ، فأتى كثير من النّاس يتردون من الحرارة المُضنية في مياه النّيل الرّائقة . فجاءت بَتْياه[1] בתיה ابنة فَرْعُوه بهذا الغرض وحولها جواريها ، فلما نزلت الماء صادف أن أبصرت بصندوق البَردي ، فرقّ قلبها للطفل وأنجتهُ من الموت .

وأُطلق العديد من الأسماء على هذا الطفل الذي نجا بأُعجوبة ، فسمّته بَتْياه[2] «مُوشيْه» משה قائلةً : «لأني قد انتشلتُه» من الماء . بينما سمّاه أبوه «حِبِر»[3] חבר لأنه اجتمع بأهله . أما أمّه فسمّته «يقوتئيل»[4] قائلةً : «قد أمّلتُ بالله» . وسمّته أخته «يارَد»[5] ירד قائلةً : «هبطتُ النّهر كي أرقبه» . أما أهَرُون أخوه فقد سمّاه «أبيْجِدُور» אביגדר ، لأن الله سَدّ به ثُلمةً في بيت يعقوب ، فالمصريون كفّوا مُنذ ذلك عن طرح الأطفال بالماء . وسمّاه جدّه «أبيسُوكو» אביסכו ، قائلاً : «ثلاثة أشهر قد خُبِّئ» . وسمّاه بنو يِسْرَئيل «شِمَعْياه بن نَتَنْيل»[6] שמעיה בן נתנאל ، لأن في أيامه سمع الله شكواهم وخلّصهم من أيدي ظالميهم .

وأضحى مُوشيْه بمثابة الابن من بَتْياه ابنة فَرْعُوه ، وكأنه طفل ينتمي رأساً إلى قصر الملك .

* * *

ثم حدث أن فَرْعُوه لمّا تبيّن أن رأي بِلعام لم يُجد ، بل راح البِسْرَئيليّون على العكس ينمون ويتكاثرون أسرع حتى من ذي قبل ، فرض عليهم أشغالاً شاقّة إضافية ، وأصدر أوامر بأن أي رجل لا يفي بإنجاز عمله اليومي كاملاً يُدفن أولاده أحياءً في المبنى الذي يعمل فيه . واستمرّ هذا النّظام معمولاً به سنين عديدة .

* * *

---

(1) المعنى الحرفي لاسمها في العِبْرية : בת־יה (بَت – يَاه) : بنت الله .
(2) في العِبْرية فعل משה (ماشَاه) يعني : انتشَلَ ، أنْقَذَ .
(3) في العِبْرية فعل חבר (حِبير) يعني : وَحَّدَ ، جَمَعَ ، رَبَطَ .
(4) في العِبْرية فعل קוה (قَواه) يعني : أمَّلَ ، رَجا ، تمنّى .
(5) في العِبْرية فعل ירד (يارَد) يعني : هَبَطَ ، نَزَلَ ، انحَدَرَ .
(6) معنى الاسم في العِبْرية : الله سمع – بن – الله أعطى .

وفي هذه المدّة ، عندما بلغ مُوشيْه سنته الثالثة ، كان فَرْعُوه جالساً إلى مائدة طعامه ، وإلى يمينه الملكة ويَتْياه إلى يساره ، وحوله ابناه وبِلعام وأمراء مملكته ، وكان مُوشيْه قاعداً في حضنه . فمدّ الطفل يده وجذب التّاج الملكي من رأس فَرْعُوه واضعاً إيّاه على رأسه .

فما كان من فَرْعُوه والقوم الذين حوله عندما رأوا ذلك إلاّ أن عدّوه أمراً ذا دلالة ، فسأل فَرْعُوه : «بِمَ يُعاقَب هذا الصبي العِبْري ؟» .

فقال بِلعَام بن بِعُور السّاحر : «لا تظنّنّ أن هذا الطفل فعل ما فعل بغير قصد لأنه صغير . فتذكّر أيها الملك الحُلم الذي عبّره لك عبدُك ، حُلم الميزان ! إن روح الفهم مغروسة منذ البداية في نفس هذا الطفل ، وهو يحتجن مملكتك لنفسه . فهذا كان يا مولاي أسلوب شعبه ، إنهم يدوسون بأقدامهم مَن أحسن إليهم ، ويَغصبون بالحيلة سُلطان مَن دَعَمَهم وحَماهم . فأبرَهام جدّهم السّالف خدع فَرْعُوه قائلاً عن سارَاه : «هي أختي» . ويصحاق ابنه فعل الشيء ذاته . أما يعقوب فاستحوذ خلسةً على البَركات التي تخصّ أخاه بالأصل ، ثم رحل إلى بلاد النّهرين وتزوّج بابنتي خاله وانهزم بهما خفيةً ، آخذاً لنفسه قطعان مَواشٍ هائلة وممتلكات عظيمة . وكذلك باع بنو يعقوب أخاهم يُوسيف إلى ربقة العبوديّة ، ثم نال بعدها تشريف جدّك السّالف فعيّنه نائباً له بمصر ، ثم لمّا حلّت المجاعة بالبلاد جلب إليها أباه بآله كلّهم ليأكلوا من خيراتها ، فيما كان المصريون يبيعون أنفسهم طلباً للغذاء . والآن يا مولاي ، يقوم هذا الصبيّ مقلّداً أفعالهم . إنه يهزأ بك أيها الملك ، وبأعيانك وأمرائك ! لذلك فلتُهرق دمه ، ليتمّ هذا الآن من أجل مصلحة مصر في الأيام القادمة» .

ردّ الملك على كلام بِلعام : «سننادي قُضاتنا أجمع ، فإن أدانوا الصبي بحُكم الموت أمرنا بإعدامه» .

فلمّا تجمّع القُضاة والحُكماء حسب أوامر الملك ، أتى يِترو יתרו [رِعُوئيل] كاهن مِديَن معهم . فروى لهم الملك فعلة الصّبي والمشورة التي أسداها إيّاه بِلعام ، طالباً آراءهم حول الشأن ذاته .

فقال يِترو ، راغباً بإنقاذ حياة الصّبي : «إن حَسُن أمام الملك ، فليُقدَّم أمام الصبيّ طبقان ، في أحدهما جَمْر وفي الآخر ذَهَب . فإن مدّ الصبي يده قابضاً على الذّهب ، علمنا أنه عاقل مُدرك ، وعددناه قاصداً ما بدر منه تجاهك ، فيستحقّ بذلك الموت . أمّا إذا قبض على الجمر فليُبقَ على حياته» .

فوافق الملك على هذه المشورة ، وقُدِّم أمام مُوشيْه الطفل طبقان : في أحدهما ذهب وفي الآخر جَمر . فمدّ الصبي يده وأمسك بجمرة جعلها في فيه ، فأحرق لسانه وأضحى مُنذ ذلك الحين «بطيء النُّطق وثقيل اللّسان» ، كما هو مذكور في نصّ التّوراه . ولكن هذا التّصرّف الصّبياني أنقذ حياة مُوشيْه[1] .

وشبّ مُوشيْه فصار فتىً حَسَناً في قصر الملك ، وكان يلبس ثياب الملوك ويحظى بتشريف النّاس ، وتلوح عليه مخايل الدّم الملكي . وكان يتردّد إلى أرض جُشِن يومياً ، مُلاحظاً العسف الذي كان يلقاه إخوته ، فلمّا استفسر منهم عن سبب إلزامهم بالعمل المرهق وتعرّضهم للظّلم ، دري بالأمور التي وقعت قبل مولده كلّها بما في ذلك جميع ما يتعلّق ببني يِسْرَئيل وجميع ما يتعلّق به شخصياً . ولمّا علم برغبة بِلعام بإهلاكه في طفولته ، جاهر بعداوته لابن بِعُور ، الذي بادر لخشيته من سُلطته وحظوته لدى ابنة الملك فهرب إلى الحبشة .

ورجا مُوشيْه ملك مصر أن يمنح أهل جُشِن يوم استراحة من أشغالهم في الأسبوع ، فوافق الملك على طلبه . وكان قول مُوشيْه له : «إن أجبرتَهم على الشّغل المستمرّ خارت قُواهم ، فمن أجل منفعتك ومصلحتك اسمح لهم بيوم واحد في الأسبوع على الأقل ، طلباً للرّاحة وتجديد العزائم» .

وكان الرّبّ مع مُوشيْه ، وذاع صيته عبر البلد كلّها . ولمّا كان في حوالي الثامنة عشرة من العُمر ، زار أباه وأمّه في جُشن ، ولمّا مضى حيث كان إخوته يشتغلون أبصر رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عِبْرِيّاً ، فقتل المصري وهرب من أرض مصر ، كما ترد الحادثة في نصّ التّوراه .

---

(1) هذه الرّواية برمّتها لا ترد في التّوراه ، فيما خلا ذكر أن مُوشيه كان ثقيل اللّسان ، راجع سفر الخروج – 4 : 10 .

وحدث في تلك الأيام أن الآشوريين ثاروا على قيقانوس ملك الحبشة ، الذي كانوا يدفعون له الجزية . فعيّن قيقانوس بِلعام بن بِعُور ، الهارب من مصر ، نائباً عنه في غيابه ، وزحف بجيش لَجب فأخضع الآشوريين ، وفرض عليهم أتاوات كبيرة .

أمّا ما كان من أمر بِلعام فإنّه خان الثّقة واحتجن السّلطة التي أوكل إليه الحفاظ عليها ، وحثّ شعب الحبشة على تنصيبه ملكاً عليهم بدلاً من قيقانوس الغائب . وقام بتحصين أسوار العاصمة ، وبنى قلعة عظيمة وحفر الخنادق والحُفر بين المدينة ونهر جيحون נהר גיחון ، الذي يحيط بكامل بلاد الحبشة .

فلمّا عاد الملك قيقانوس بجيشه تعجّب لرؤية التحصينات المبنيّة في غيابه ، فظنّ أن الشعب خشوا من هجوم يشنّه ملوك كنعان في خلال غيبته ، فعملوا على التجهّز له . ولكن عندما أُوصدت بوّابات المدينة في وجهه ، وصاح طالباً فتحها سُدىً ، اشتبك في حرب مع الموالين لِبلعام . واستطالت الحرب بين قيقانوس وبِلعام تسع سنين ، فمُني بها الأول بخسائر جسيمة .

ولمّا هرب مُوشيْه من مصر انضمّ إلى جيش قيقانوس ، وسرعان ما أمسى محبوباً للغاية من قبل الملك وأعوانه كلّهم .

ومرض قيقانوس فمات ، فدفنه جنوده قُبالة المدينة ، وأقاموا على جُثمانه صَرحاً نقشوا عليه نَبت الأعمال الجليلة التي أتى عليها في حياته . ثم قال بعضهم للآخر : «ماذا نفعل ؟ تسعة أعوام مضت ونحن غائبون عن ديارنا ، فإن هاجمنا المدينة كرّة أخرى فمن المحتمل أن نُصدّ دُونها ثانيةً ، وإن مكثنا ها هنا فإن ملوك إدوم عندما يبلغهم موت قائدنا سيهاجموننا فلا يُبقون منا على أحد . خيرٌ لنا أن نُعيّن ملكاً آخر سوى قيقانوس» .

فقام الجيش بتنصيب مُوشيْه عليهم ملكاً وقائداً ، في السنة المئة والسابعة والخمسين من هبوط يِسْرَئيل مصر[1] .

---

(1) لا أثر لهذه الرّواية كلّها في التّوراه . وهنا يلاحظ الدّارس مدى نموّ تراث الأجداد الشّفهي على هامش التّوراه ، حتى غدا منها بمثابة التّكملة لا مجرّد التفسير .

ووجد مُوشيْه حُظوة في عيني الرّبّ ، وبثّ الجرأة في قلوب جنوده بكلامه وبأفعاله . وهاجم القلعة بحملة قويّة ، مع نفخ الأبواق والعزيمة الصّادقة ، ففُتحت المدينة على يديه ، وصُرع في المعركة من أعدائه ألف ومئة رجل . غير أن بِلعام بن بِعُور نجا بنفسه وهرب عائداً إلى مصر ، فغدا فيها واحداً من السَّحَرة المذكورين في التّوراه (الشّريعة) .

ونصّب الأحباش مُوشيْه ملكاً على عرشهم وجعلوا تاج المُلك على رأسه ، وزوّجوه بأرملة قيقانوس . لكن مُوشيْه تذكّر مع ذلك تعاليم آبائه ، كيف دفع أبرَهام عبده إلى القَسَم بألاّ يجلب إحدى بنات الكنعانيين لتكون امرأة ليصحاق ، وكيف قال يصحاق لابنه يعقوب : «لا تأخذ لنفسك امرأة من بنات الكنعانيين ، ولا تصاهر أحفاد حام» . وعلى ذلك ، كانت أرملة قيقانوس زوجة لمُوشيْه من حيث الاسم فحسب .

ولمّا أضحى مُوشيْه ملكاً على الحبشة ثار الآشوريّون من جديد ، غير أن مُوشيْه أخضعهم وفرض عليهم جزية سنويّة يدفعونها لحكّام الحبشة .

* * *

ثم حصل في السّنة المئة والثمانين من هبوط يِسْرَئيل لمصر ، أن ثلاثين ألفاً من قبيلة إفرايِم قاموا فتوزّعوا فرقاً وقالوا : إن الوقت الذي أعطاه الرّبّ لأبرَهام في عهد الأشطار (تكوين - 15 : 13) قد حلّ[1] ، وسنصعد خارج مصر . واتّكل هؤلاء على قواهم فغادروا مصر . لكنهم لم يأخذوا معهم أيّة أقوات ، ما خلا لزوم مسيرة يوم واحد . ولم يأخذوا شيئاً سوى ذهب وفضّة ، قائلين : «سنبتاع طعاماً من الفلسطينيين» .

وفيما رحلوا صوب جَت גת صادفوا جماعة من الرّعيان ، فقالوا لهم : «بيعونا ماشيتكم ، فنحن جائعون» . غير أن الرّعيان أجابوا : «هذه الماشية حلالٌ لنا ، لا نبيعها لكم» .

---

(1) يرد في ذلك العهد في التّوراه : «فقال الرّبّ لأبرام : اعلَم يقيناً أن نسلك يكونون غُرباء في أرض ليست لهم ، ويُستعبدون ويُعذّبون أربع مئة سنة» .

فاستولى رجال إفرايم على الماشية بالقوّة ، فتصايح الرّعيان بقوة ، وبلغت صيحاتهم أسماع أهالي جَت ، فتجمهروا لتبيان الأمر . فلمّا علم أبناء جَت بالشكل الذي عومل به إخوانهم تسلّحوا ووزحفوا لقتال المُسيئين ، فسقط الكثير من الطرفين . وفي اليوم التالي وجّه أهل جَت גת رُسُلاً إلى مُدُن الفلسطينيين قائلين : «هَلُمّوا فساعدونا على دحر الإفرايميين ، الذين جاؤونا من مصر واستولوا على ماشيتنا وقاتلونا بغير سبب» .

فتقدّم الفلسطينيون بقوّة تعدّ حوالي أربعين ألفاً ، وهزموا الإفرايميين الذين كانوا مُرهقين وجائعين ، ولم ينجُ من الموت الذي أصاب قبيلة إفرايم سوى عشرة أنفار . وهكذا عوقب رجال إفرايم للصّعود من مصر قبل الوقت الذي عيّنه الرّبّ . ويقيت أجساد القتلى منهم في وادي جَت لم تُدفن ، وكانت عظامهم هي التي قامت تدبّ فيها الحياة ، في زمن يَحزَقْئيل ، كما تروي نبوءته[1] .

وعاد هؤلاء النّاجون العشرة إلى أرض مصر ، فرووا لبني يِسْرَئيل ما حصل لهم .

في أثناء ذلك كان مُوشيْه يحكم الحبشة بالعدل والصّلاح . غير أن ملكة الحبشة أدونيت[2] אדנית ، وهي زوجة مُوشيْه بالاسم فحسب ، قالت للشعب : «لماذا يبقى هذا الغريب حاكماً عليكم ؟ أليس خيراً منه أن يُقام ابن قيقانوس على عرش أبيه ، وهو واحد منكم ؟» . بيد أن النّاس لم يرتضوا رغم هذا الرّأي بالتنكّر لمُوشيْه الذي أحبّوه ، لكنه عمد إلى التّنازل عن السّلطة التي منحوه إيّاها ، من تلقاء نفسه ، ورحل عن أرضهم . فقدّم له شعب الحبشة الكثير من العطايا الثمينة ، وودّعوه بغاية التكريم .

---

(1) راجع سفر يحزقئيل من أسفار نبيئيم أخرونيم - 37 : 1-11 ، حول إحياء الرّب للعظام البالية وهي رميم . وهو من النّصوص الهامة في هذا السّفر .

(2) المُفترض أن يكون اسمها باللغة الأمهرية السّاميّة السّائدة في الحبشة ، فإذا به هنا من الفرع الغربي للغات السّاميّة ! ففيها أدون هو السيّد أو الرّبّ (تحوّل في الميثولوجيا الإغريقية إلى أدونيس Αδονης) ، أما أدونيت فهي صيغة التأنيث من أدون . واليهود المتديّنون دوماً يتحاشون لفظ اسم الله الأعظم (יהוה) تنزيهاً له (إلا مرّةً في العام بيوم كِپور) فينطقونه حتى وإن ورد في نصّ التّوراه أمامهم : أدوناي אדני ، أي : سيّدي ، ربّي .

أما مُوشيْه الذي كان لا يزال خائفاً من العودة إلى مصر ، فقد رحل إلى أرض مِدْيَن[1] ، وتوسّد مكاناً قعد فيه قرب بئر ماء . وحدث أن وردت بنات رِعُوئيل (أو يِترو) السّبع هذا البئر للاستقاء لماشيتهنّ . فطردهنّ رُعاة مِدْيَن ، بغية إبعادهنّ حتى ترد ماشيتهم أولاً ، غير أن مُوشيْه تدخّل لمصلحتهنّ ، فعُدن إلى بيتهنّ مُبكرات وروين لأبيهنّ ما قد حدث . فأرسل رِعُوئيل في طلب مُوشيْه ، وروى له هذا الأخير كل ما جرى له منذ هروبه من مصر . وعاش مُوشيْه عند رِعُوئيل ، وحظيت في عينيه صِفُراه צפרה ابنة مُضيفه فتزوّجها .

* * *

وفي أثناء ذلك ، أصاب الرّبّ فَرْعُوه ملك مصر بالجُذام . وكان المرض شديد الوطأة ، فعانى الملك من آلام مُبرّحة لا توصف . واشتكى نُظّار العمل المعيّنين على البِسْرَئيليين من أن هؤلاء باتوا كسالى يهملون عملهم .

قال الملك في نفسه : «إنهم يستغلّون مرضي» ، فأمر بتجهيز عربته وتجهّز للرّكوب بنفسه وتوبيخ العمّال ، وليتأكّد من عدم تهرّبهم من شغلهم .

وحدث أثناء ركوبه في درب ضيّق أن تعثّرت خيله وانقلبت به العربة ، فارتمى الملك على الطريق وداست عجلات العربة عليه . فتمزّق اللّحم الرّخو من جسمه وتكسّرت عظامه التي غدت بسبب المرض هشّة . فسجّاه عبيده على نعش وحملوه إلى قصره ، ولكن عندما مدّدوه على سريره علم الملك أن منيّته قد حلّت . فتجمّع كلّ من امرأته وأمراؤه ، وراحوا يبكون حول سريره فبكى فَرْعُوه معهم ، وطلب إليه مُقدّموه أن يُسمّي خليفته .

وكان لفَرْعُوه ابنان وثلاث بنات . وكان البكر ذا عقلية غير سويّة وشخصيّة متقلّبة ، بينما كان الآخر ، برغم ذكائه وتمرّسه بعلوم بلاده ، صاحب مخيّلة شريرة ودميم الخلقة وقزماً . وبرغم ذلك ، مال الملك إلى ابنه الآخر نظراً لذكائه الفائق ، ليكون هو من يليه في سُدّة الحُكم .

---

(1) في أطلس أوكسفورد للكتاب المقدّس أن أرض مِدْيَن هذه تقع إلى الشرق مباشرة من خليج العقبة مواجه صحراء سيناء . راجع : *Oxford Bible Atlas*, p. 67 .

ولبث فَرْعُوه ثلاث سنين يعاني آلاماً قاسية مبرّحة ، ثم مات ودُفن في قصر الملوك ، لكنّه لم يجر تحنيطه لأن جسده كان بحالة رثّة من المرض إلى درجة لا تسمح بتجهيزه بالحنُوط .

وفي السنة السادسة بعد المئتين من دخول بِسْرَئيل مصر ، ارتقى الفَرْعُوه المذكور إلى عرش البلاد . وسَامَ بني بِسْرَئيل سُوء العذاب وزاد من أعبائهم ، فألغى يوم الرّاحة الذي كان أعطي لهم باسم أبيه ، متذرّعاً بانغماسهم في الكسل والبطالة خلال فترة مرض أبيه .

ورَزَح بنو بِسْرَئيل في قيود عبوديّتهم ، وصرخوا إلى الرّبّ . فسمع الرّبّ صُراخهم ، وذكر ميثاقه لأبرَهام ويصحاق ويعقوب .

ولاحظ كان مُوشيْه أثناء إقامته عند رِعُوئيل المِدْيَني وجود عصا في حديقته ، فأخذها لتكون بيده عصا للمشي . وهي عصا يُوسيف ذاتها ، أخذها رِعوئيل معه عندما هرب من مصر . وكذلك كانت العصا نفسها التي أخذها آدام عندما خرج من جنّة عدن . وكان ورثها نُوَح ، فأعطاها بعد ذلك لابنه شيْم . وتناقلت عبر أيدي نسل شيْم إلى أن صارت بمُلك أبرَهام . فلمّا ترك أبرَهام كل ممتلكاته الدّنيويّة ليصحاق كانت هذه العصا من بينها ، ولمّا هرب يعقوب من سخط أخيه إلى بلاد النّهرين حمل هذه العصا بيده ، ثم لمّا أقام بمصر أعطاها ليُوسيف ابنه .

* * *

وحدث بعد انقضاء عامين أن الرّبّ أرسل مُوشيْه ثانيةً إلى فَرْعُوه لإحضار بني بِسْرَئيل من بلده . وتكلّم مُوشيْه أمام فَرْعُوه بكل ما أمره به الرّبّ ، ولكن فَرْعُوه لم يُصغِ إلى كلامه . ولذا سُلّط جبروت الرّبّ على المصريين ، فأصاب فَرْعُوه ومُقدّميه وشعبه بآفات شديدة .

وعلى يدي أهَرُون ، بدّل الرّبّ مياه مصر إلى دم . فكان مَن يسحب الماء من ساقية جارية ينظر إلى دلائه فإذا بالماء صار دماً أحمر . وكان مَن يروم الشُّرب ويطفئ ظمأه يمتلئ فمه بالدّم ، ومَن يستعمل الماء في عمل الخبز يجد العجين ممتزجاً بالدّم في معجنه .

ثم راحت الأنهار تفيض بالضفادع ، فراحت تجوس في بيوت المصريين ، وفي طعامهم وفي مخادعهم . وبقيت ذراع الرّبّ مبسوطة بالسّخط على مصر ، فأصاب البلد بجائحة شديدة من القَمْل . فكان القمل على أجساد النّاس والحيوانات ، وعلى الملك والملكة وجميع شعب البلد[1] .

ثم سلّط الله على مصر وحوش الغابات الضارية ، فكانت تدخل المدن المأهولة وتُهلك الحرث والنّسل ، وتوقع رُعباً عظيماً في البلاد . وكثرت الحيّات والعقارب وكل أنواع الزّواحف والهوام ، ما خلا الفئران وابن مقرض ، وجميع أنواع القوارض والذّبّان والزّنابير وأصناف الحشرات ، التي ملأت أرض مصر واغتذت عليها .

ثم أرسل الله طواعين مُهلكة في الماشية ، فنفقت كلّها في ليلة واحدة ما هدا عُشرها . غير أن الماشية التي يملكها البِسْرَئيليّون في جُشَن لم تتأثّر ، ولم يفقدوا منها رأساً واحداً[2] .

ثم غَدَت أجسام المصريين عليلة مؤذية المنظر ومليئة بالقُروح ، وأصابت لحومهم الالتهابات . ولكن غضب الرّب ما برح برغم ذلك يستعر عليهم ، ولبثت يده عليهم مرفوعة بالسَّخَط . فأرسل الله زَخّة بَرَد أتلفت الكُروم والأشجار والعُشب الأخضر والزّروع اليانعة ، أمّا من اجترأ من النّاس على الخروج من بيته ، والماشية المتروكة بلا مأوى ، فقد كان مصيره ومصيرها الموت تحت انهمار البَرَد القاسي . ثم اجتاحت البلد أسراب عظيمة من الجراد ، فأتلفت كل ما تركه البَرَد وأتت على كل نبت أخضر .

وبعد هذا كلّه ، اكتنفت الظُّلمة البلد بأسره ، ولثلاثة أيام وثلاث ليال عجز النّاس حتى عن رؤية أيديهم أمامهم . وخلال مدّة الظّلمة هذه أهلك الله مَن كان عاصي القلب من البِسْرَئيليين ، والذين لم يكونوا طائعين لتنفيذ أوامره . وفعل الله ذلك في الظُّلمة حتى لا يبتهج به المصريّون .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح الثامن .
(2) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - الأصحاح التاسع .

ثم بعد ذلك أمر الرّب مُوشيْه وأهَرُون بتحضير ذبيحة الفِصح פסח ، قائلاً : «وأنا أجتاز فوق أرض مصر وأقتلُ كلّ بِكر من النّاس والبهائم» . ففعل بنو بِسْرَئيل كما أُمروا ، وحدث في منتصف الليل أن الرّبّ اجتاز فوق البلد وضرب كل بِكر في جميع أرض مصر ، من النّاس والبهائم[1] .

ثم كان صُراخٌ عظيم في جميع الأرض ، حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت . فقام فَرْعُوه وشعبه من شدّة الخوف والحزن الجارف . ومَضَت بَتْياه بنت فَرْعُوه تبحث عن مُوشيْه وأهَرُون ، فوجدتهما في منزلهما يرتّلان تسبيحةً للرّبّ .

وخاطبت بَتْياه مُوشيْه قائلةً[2] : «ها أنا أطعمتُك طفلاً على ذراعيّ وأحببتُك في قلبي منذ طفولتك ، فكيف تكافئ رعايتي وحبّي ؟ عليّ وعلى شعبي وعلى بيت أبي جلبتَ الكوارث والخراب» .

سأل مُوشيْه : «أأصابك شيء من الآفات ؟ إن كان الأمر كذلك فأخبريني أرجوكِ» . فأجابت بَتْياه : «كلاّ» .

فتابع مُوشيْه : «ومع أنك بِكر أمّك ، فها أنتِ الآن أمامي على قيد الحياة وعلى أتمّ حال . أريحي بالك ، فلن يلحق بك أيّ أذى» .

فأجابت بَتْياه : «فيمَ تنفعني راحة البال إذ أرى الشّرّ المُستطير يُحيق بأخي الملك وبعبيده وآل بيته» .

أجاب مُوشيْه : «لأنهم لم يستمعوا إلى صوت الله ، ولذلك حلّ بهم هذا العقاب» .

ثم ظهر فَرْعُوه أمام مُوشيْه وأهَرُون ، وصاح بهما : «قوما ، خُذا إخوتكما ، مع مواشيهم وقطعانهم وكلّ ما لديهم ، ولا تتركوا شيئاً . اذهبا ولكن استغفرا الرّبّ من أجلي» .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 12 : 11–12 .

(2) ليس في التّوراه كذلك ، إنما أمر فرعوه لموشيه بأن يخرج بقومه من مصر (الخروج – 12 : 21–22) . وخبر ابنة فرعوه يرد فقط عند ذكر عثورها على موشيه بالنّهر ، أما اسمها فينفرد به التّلمود . وفي تراث قصص الأنبياء الإسلامي : «آسيا امرأة فرعون» .

وأطلق المصريّون بني يِسْرَئيل لوجههم بثروات عظيمة وماشية وقطعان ، وأمتعة نفيسة ، تماماً كما وعد الربّ أبرَهام في رؤياه حول الميثاق بين الأشطار . ولم يُبارح بنو يِسْرَئيل مصر في تلك الليلة ، بأنهم قالوا : «لسنا أصحاب حَبائل وأسرار حتى نسير في عتمة الليل» . بل لبثوا حتى طلوع الفجر ، وأخذوا أواني من ذهب وفضّة ممّن كانوا يظلمونهم .

وأخذ مُوشيْه عظام يُوسيف معه ، وأخذ باقي الشعب معهم كذلك عظام بني يعقوب الآخرين .

وارتحل بنو يِسْرَئيل من رَعَمْسيْس إلى سُكُّوت[1] סכות . ولقد كان رحيل اليسرئيليين من مصر بعد مئتين وعشر سنين من دخولهم إليها ، بنحو ست مئة ألف رجل ، مع زوجاتهم وأطفالهم .

ولثلاثة أيام عقب رحيل اليِسْرَئيليين ، انهمك المصريّون بدفن موتاهم ، وبعد ذلك راحوا يقولون ، بعضهم للآخر : «إن مُوشيْه وأهَرُون قد قالا لفَرْعُوه : «نودّ الخروج إلى البريّة أيّاماً ثلاثة ، كيما نقدّم ذبيحةً للربّ إلهنا» ، فهلمّوا بنا الآن نقوم بُكرةً ونلحق بأعقابهم . فإن وجدناهم عائدين إلى مصر علمنا أنهم أصحاب ولاء لنا ، أمّا إن ألفيناهم غير ناوين على العودة أعدناهم بالقوّة»[2] .

وخرج جيش عظيم من المصريين في أعقاب اليِسْرَئيليين ، فأدركوهم وهم نازلون أمام فَم الحِيرُوت פי החירות ، حيث كانوا يُقيمون شعائر الربّ . فصاح بهم المصريون : «مضى على غيابكم عن مصر خمسة أيام ، وكنتم وعدتم بالعودة في ثلاثة أيام . أتراكُم لا تنوون الرّجوع ؟» .

فأجاب مُوشيْه وأهَرُون قائلين : «الربّ قد أمرنا أن نتابع طريقنا صوب اللأرض التي تدرُّ لبناً وعسلاً ، والتي أقسم لآبائنا أن يُعطيها لنا» .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 12 : 37 . واسم الموقع سُكُّوت نسبةً إلى مظلات (مُفردها في العبريّة : سُكّاه סכה) أقامها يعقوب لماشيته (التكوين 33 : 17) ، ولها عيد يقع في 15–22 من شهر تشري ، يقيم اليهود به في ظلّات تذكّرهم بمساكن أجدادهم أثناء إقامتهم بالتّيه في سيناء أربعين عاماً . وسنذكر هذا العيد بآخر الكتاب بالتفصيل .

(2) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 14 : 5 ، مع اختلاف في الرّواية .

فلمّا رأى المصريون أن البِسْرَئيليين قد أزمعوا على الخروج عنهم ، شكّلوا قوّاتهم لقتال عبيدهم الآبقين . ولكن الربّ قوّى قلوب شعبه ، فانهزم أمراء مصر من وجوههم عائدين إلى بلدهم .

ولمّا درى فَرْعُوه بما حصل لهم ، وكَم منهم لقي مصرعه ، قال متأسّفاً : «ماذا صنعنا فأطلقنا هؤلاء العبيد من خدمتنا ؟ سوف نُحرم من خدمتهم لنا في صنع الآجرّ وتشييد حصوننا . ولمّا يصل الخبر إلى أتباعنا الذين يدفعون لنا الجزية سيثورون علينا ، ما لم نتّخذ إجراءات صارمة تجاه هؤلاء البِسْرَئيليين ، إذ سيقول هؤلاء الأتباع : «إذا كان في وسع العبيد الثّورة عليهم ، فكم بالأحرى يكون من اليسير علينا كأمراء وحكّام أن نرمي عن أعناقنا نير عبوديّتهم ؟»» .

ولذلك جمع فَرْعُوه حُكماءه وسَحَرَته وأعيانه ، وتداولوا معاً فقرّروا أن يلحقوا بأرقّائهم ويستردّوهم . وأصدر فَرْعُوه بياناً يدعو كل رجل قادر على القتال أن يتأهّب للمسير ، وعلى هذا النّحو تجمّعت جيوش مصر .

ثم فتح فَرْعُوه خزائنه ووهب العطايا لكلّ رجل بحسب رُتبته ، وخاطبهم بنبرة منمّقة ومهيبة ، قائلاً : «إذا قامت الحروب ينال الجُند الغنائم ، لكنها تعود في الأصل إلى ملكهم بحسب الشرائع . غير أنني هذه المرّة سأقتسم الغنائم معكم . وتُحتّم الشرائع على تقدّم الجُند في المعركة على رأس القوّات لخوض القتال ، لكنني في هذه المرّة سأكون في المقدّمة وأنتم تتبعونني . وتأمر الشرائع أن يجهّز عبيد الملك مركبته ، لكن ها أنا ذا أجهّزها بنفسي» .

فسرّت كلمات فَرْعُوه الجنود ، فبادروا بحماس إلى تسليح أنفسهم بالسّيوف والرّماح والقسيّ والسّهام .

وكان البِسْرَئيليون نازلين عند بحر القُلْزُم (أي البحر الأحمر) יַם־סוּף [1] ، فرفعوا عيونهم فإذا المصريّون منطلقون في أثرهم . فامتلأت قلوبهم رُعباً ، إذ كان البحر من أمامهم وعدوّهم من ورائهم ، فصرخوا إلى الربّ .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج – 15 : 22 . وفي العبرية יַם־סוּף (يَم سُوف) تعني : بحر القَصَب .

وحلّ بينهم نزاع شديد في الرّأي . فقسم المختلفون أنفسهم إلى أربع فرق ، وردّ مُوشيْه على كل واحدة منها بالشكل المُناسب[1] .

فأما الفرقة الأولى ، التي تتألّف من أسباط رَوْبين و شِمعون ويَسّاكَر ، فرغبوا أن يقذفوا بنفسهم في اليمّ ، لأنهم لم يروا أملاً بالنّجاة . غير أن مُوشيْه خاطبهم قائلاً : «لا تخافوا ، قفوا وانظروا خلاص الرّبّ الذي يُجريه اليوم لكم» .

أمّا أسباط زَبُولون ونَفتالي وبنيامين ففضّلوا الإياب إلى مصر . فقال لهم مُوشيْه : «كما رأيتُم المصريين اليوم ، لن تعودوا ترونهم إلى الأبد» .

أمّا أسباط يِهُوداه ويُوسيف فرغبوا بلقاء المصريين والاشتباك بالقتال معهم . لكن مُوشيه قال : «استمسكوا بأماكنكم ، الرّبّ يحارب عنكم ، وأنتم يلازمكم السّلام» .

أما الفرقة الرّابعة ، التي تتألّف من أسباط ليوي وجاد وأشير ، فقد تشاوروا على القيام بهجوم خاطف مُباغت على صفوف المصريين ، ظنّاً منهم أن ذلك قد يُصيبهم بالارتباك ويُضعفهم ، فقال لهم مُوشيْه : «لا تتحرّكوا ولا تخافوا ، بل حَسْبُكم أن تدعوا الرّبّ لِيُنجيكم من أيديهم» .

ثم حدث بعد أن تكلّم مُوشيْه بهذه الكلمات أنه قام في وسط الشّعب ، ودعا الرّبّ قائلاً : «أتوسّلُ إليك يا ربّ يا إله الكون ، أن تُنجي هذا الشّعب الذي أخرجتَه من مصر . ولا تذر المصريين يغلبون فيقولون مُتبجّحين : «يدُنا قويّة» » .

فقال الرّبّ لِمُوشيْه[2] : «ما بالُك تصرخ إليّ ؟ قُل لبني يِسْرَئيل أن يرحلوا» .

ومدّ مُوشيْه عصاه على البحر كما أمره الله ، فانشقّ الماء . وعبر بنو يِسْرَئيل في وسط البحر الأحمر على اليَبَس ، فلمّا عبروا انطبق الماء على المصريين ، ولم ينجُ من جيوشهم كلّها أحد .

---

(1) قابل على التّوراه ، سفر الخروج - 14 : 11-14 ، مع اختلاف في الرّواية وفحوى النّقاش بين مُوشيه وربعه .

(2) يعود هنا التّقابل على نصّ التّوراه ، سفر الخروج - 14 : 15 .

حينئذ سَبَّح مُوشيْه وبنو يِسْرَئيل للرّبّ هذه التّسبيحة فرحين وقالوا[1] :

«أُسبّحُ الرّبَّ بحقّ مجده العظيم
الفرَسَ وراكبه رَماه في البحر»

אשירה ליהוה כי־גאה גאה
סוס ורכבו רמה בים

* * *

(1) قابل على التُّوراه ، سفر الخروج – 15 : 1 ، وهذا مطلع ترنيمة تستغرق حتى الآية 19 . ثم يليها في الآيتين 20–21 : «ثمّ أخذت مِريَم النّبيّة أخت هارون الدّف في يدها وخرجت النّساء كلّهن وراءها بدفوف ورقص * فجاوبتهنّ مِريَم : سبّحوا الرّبّ لأنه قد تعظّم بالمَجد ، الفَرَس وراكبه رَماهما في البَحر» . وتلفت الانتباه بالأخصّ هذه العبارة : «مِريَم النّبيّة أخت هارون» מרים הנביאה אחות אהרן !